الكتاب: الدولة بين كوردستان وجنوب السودان

الكاتب: أحمد الزاويتي

الطبعة الأولى : 2012
جميع الحقوق محفوظة

الناشر: دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - سوريا: ص.ب 5292
تلفاكس: 00963 11 5626009
موبايل: 00963 932 806808

E-mail: zeman005@yahoo.com
E-mail: zeman005@hotmial.com
Website: www.darzaman.net

الإشراف الفني: دار الزمان

من واقع تجربة صحفية

الدّولةُ

بين كوردستان وجنوب السودان

أحمد الزّاويتي

الإهداء

إلى (ألند) ابني الذي لم يبلغ رشده، ولم يطلع بعد على التعقيدات السياسية المحيطة بكوردستان، وما يمنعها من أن تكون دولة كما دول العالم، فيحلم دائما بذلك، ضاربا عرض الحائط كل الحسابات السياسية التي تجعل كردستان دون أن تكون دولة، ودون أن يعتبر لكل ذلك اعتبارا معاتبا السياسيين الكورد الذين يحسبون لكل تلك الاعتبارات ألف حساب وحساب قبل أن يفكروا في الدولة.

إلى (ألند) وأمثاله من جيل قادم موقن بان كوردستان حتما ستكون دولة يوما ما..

إلى الراحلين: القاضي محمد الذي أعلن عن جمهورية كوردستان، رغم وأدها من قبل الأعداء، والشيخ محمود الحفيد الذي أعلن عن مملكة كردستان رغم عدم نجاحه، وإلى كل من عمل من اجل دولة كوردستان حتى ولو فشل في تحقيق ذلك، اهدي كتابي هذا كجهد متواضع لشرح واقع كوردستان الحالي وما يفصلها من أن تكون دولة، حالما بيوم أن ترى أعيننا أو أعين من بعدنا من أبنائنا هذه الدولة وهي حقيقة واقعة في يوم ما.

أحمد الزاويتي

6 الدولة بين كوردستان وجنوب السودان .....

تقديم

وجدت نفسي مشدودا بقراءة كتاب (الدولة بين كوردستان وجنوب السودان) الذي هو في الأصل عبارة عن مشاهدات من واقع تجربة صحفية بعد تغطية للأخ أحمد الزاويتي الإعلامي اللامع والصحفي الناجح مدير مكتب الجزيرة في اربيل عاصمة إقليم كوردستان، لشأن الاستفتاء حول مصير جنوب السودان بين الانفصال أو البقاء مع السودان..

كلما أقرأ سطورا وصفحات من هذا الكتاب الشيِّق أجد نفسي مدفوعا للمضي في القراءة مستمتعا بها، فالكتاب جمع في صياغته بين الأسلوب الصحفي الذي برع فيه الزاويتي وبين الأسلوب الأدبي بفنه التصويري الجذاب الذي يتردد بين الخيال والواقع، فمرة تجده ينتقل من الخيال للواقع وأخرى من الواقع للخيال، كل ذلك في فضاء مليء بالإحساس الجمالي كما وأضاف إلى ذلك أسلوب التحليل السياسي في إطار من المقاربة والمقارنة والاستنتاج حول أوجه التشابه والاختلاف والمؤتلف والمختلف والأشباه والنظائر بين قضية الشعب الكوردي وقضية شعب جنوب السودان مشخصا عوامل القوة والضعف ومقومات

النهوض والبناء ومعوقات التقدم والارتقاء وعناصر السقوط والصعود مدرجا أهم وأكبر التحديات والمخاطر التي تواجه التجربتين ..

يتناول الأخ الزميل أحمد الزاويتي في مشاهداته أثناء تغطيته للأحداث في جنوب السودان المحاور والملفات التي كلف بها من قبل التحرير في الجزيرة بعين الناقد البصير في هذا الكتاب متخذا من التفرس في الذات والنظرة النقدية أسلوبا ومنطقا في التفكير والتعبير يحرك بذلك أصحاب القضية من القادة والسياسيين والقوى السياسية والحركات الوطنية لتحمل التبعات والمسؤوليات كما ويهاجم على ضوء ذلك المنهج التبريري والعقل الوقوعي والرضوخي والمستسلم للواقع الأليم المفروض باسم الواقعية ومعطيات الساعة والموقف الدولي والإقليمي ووو.. إلخ.

يقدم مؤلف الكتاب ملحوظات واستنتاجات في غاية الأهمية انطلاقا من نظرة فاحصة على أسس نقدية تدفع القوى السياسية الكوردية والمؤسسات الدستورية لإقليم كوردستان باتجاه مراجعة برامجها والتنبه لأخطائها وتطوير أدائها وتصحيح سلوكياتها وتعاطيها مع جوهر القضية الكوردية وأساسياتها كل ذلك بهدف النظرة إلى المستقل والتطلع إلى غد مشرق تحقق فيه الطموحات والأماني .

يدعو الزاويتي إلى الانطلاق نحو الأهداف الكوردية بفكر جديد ورؤية واضحة تتمثل في مشروع وطني استراتيجي وحاديه في ذلك حب الوطن والإخلاص لقضية شعبه وحمل هموم قضيته .

لقد اتضح لي عبر قراءة سطور هذا الكتاب شخصية الزاويتي القادرة على الفهم والاستيعاب والجرأة في الطرح والعرض والتحليل والنقد من خلال حث وتشجيع ودفع القوى السياسية الكوردية على المراجعة في الخطط والبرامج وفي الرؤى والتصورات بإرادة قوية وإدارة كفوءة وأداء فعال دون المراوحة والرجوع إلى الخلف وذلك للخروج من الجو السائد للأحزاب الكوردية والقوى السياسية والمشحون بالتبرير والتكرار والاجترار بعيدا عن منطق الربط والتقييم وتعديل خطة العمل وتقديم المبادرات واقتناص الفرص وبرمجة الأهداف وهندسة الخطوات ..

كما واتضح لي عبر المقارنة التي أجراها الزاويتي بين التجربتين ضرورة أن تكون القوى السياسية الكوردية والمؤسسات الدستورية لإقليم كوردستان على وعي كامل بمقومات البناء وعناصر القوة والفرص المتاحة واستثمارها باتجاه تحقيق أهداف الشعب الكوردي وبناء الدولة ودراسة

التحديات الحالية والمستقبلية والاستجابة لها بعقلية وحسابات التغلب عليها ومجاوزتها وفق قانون الاستجابة والتحدي الأمر الذي يدفع الجميع إلى استثمار وتوجيه كافة الموارد وجميع الإمكانيات وتفجير كل الطاقات على الوجه الأمثل لتجاوز العقبات ومواجهة التحديات ومغالبتها لتحقيق الحلم الكوردي المنشود..

لا أريد أن أقف مانعا بينكم وبين الكتاب، بل لكم فرصة التمتع بقراءته والإطلاع على ما فيه من أهمية.

خليل إبراهيم
سياسي وبرلماني كردي

كلمة لابد منها

اسرد هنا تجربتي في تغطية الاستفتاء على انفصال جنوب السودان من السودان، بغير الرؤية التي غطيتها كصحافي لقناة الجزيرة، تلك التغطية التي اقتضت أن أتناول الموضوع كناقل للحدث ولآراء أصحابها، وأن أتجنب رؤيتي الخاصة.

هنا سأتناول الموضوع من خلال رؤيتي الخاصة بعقل مشاهد غطى الكثير من القضايا والأحداث، وهي الآن تجاوزت مرحلة الحدث الآني للتغطية إلى ماض من المهم التطرق إليه، من زوايا جديدة لم يكن بالإمكان الدخول من خلالها في حينه، وهناك فرق كبير بين أن تنقل حدثا صحفيا دون أن يكون لك موقف منه أو رأي فيه، لأن مهمة الصحافي هو النقل، نقل الحدث، ونقل المواقف منه والآراء عليه، ويجنب نفسه مسئولية الموقف والرأي، وبين أن تتكلم عنه كشاهد عاش الحدث وعاش نقله للحدث، ويحاول أن يتذكرها الآن ليعلن بين اسطره التي تسرد على شاكلة مذكرات، رأيه وموقفه بل تقييمه لبعض ما يتذكره.

غطيت الكثير من الأحداث والقضايا في الإحدى عشرة سنة الأخيرة، تسعة منها مع الجزيرة، وقبلها سنتين للصحافة العربية الدولية الأخرى، كشبكة إسلام أون لاين ومجلة المجتمع الكويتية، وإذاعة صوت ألمانيا، وكتبت مقالات متفرقة هنا وهناك، كانت لي في أولى سنواتي الثلاث من هذه المدة ما يقارب الثلاث آلاف مشاركة كتابية في المنتديات، والمواقع العربية، والإسلامية، تلك هي التي أوصلتني للجزيرة منذ آذار عام ألفين وثلاثة. ما افتخر به في الثلاث آلاف مشاركة هي أن جلها عن الكورد كقضية وتاريخ وحاضر ومستقبل، كانت مشاركاتي ومداخلاتي بل أحيانا مناوشاتي ومعاكساتي مع بعض من شاركني من الزملاء العرب من قراء وصحفيين وكتاب وأدباء، في السنوات الثلاث المذكورة، أوصلتنا أحيانا إلى استفتاء حول خيارات حل المشكلة الكوردية في المنطقة، وبينها كان خيار الدولة، نتيجة الاستفتاء جاءت غير متوقعة حيث كانت في مصلحة خيار الدولة، رغم أنه حتى الدولة ربما لا تكون حلا للمشكلة الكوردية، وبخاصة إذا كانت هذه الدولة تعتبر معادية ومحاربة من دول الجوار، لكن أن يكسر بعض العرب حاجز التحفظ في موضوع الدولة الكوردية، ويصل بهم العصف الذهني الذي حدث بيني وبينهم إلى تأييد منح الدولة في الاستفتاء، يدفع واحدا مثلي ليعرف أهمية الخوض ككوردي في الإعلام العربي وبقوة.

ضمن فريق التغطية

كعادة قناة الجزيرة تستعد لتغطياتها الخاصة قبل اشهر من الحدث، استفتاء جنوب السودان في يناير من ألفين وأحد عشر كان محددا له قبل خمس سنوات من موعده باتفاقية نيفاشا عام ألفين وخمسة، وهي الاتفاقية التي سميت باتفاقية السلام الشامل التي أوقفت أطول حرب أهلية في أفريقيا، وُقعت بين حكومة السودان بقيادة حزب المؤتمر الوطني الذي يتزعمه الرئيس السوداني عمر البشير والحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة جون قرنق، تلك الحرب التي استمرت أكثر من نصف قرن، بلغ عدد قتلاها حسب إحصائيات سودانية أكثر من مليوني سوداني من غير الخسائر الأخرى التي لا تقدر، وآخرها التي جلبتها الحرب لأكبر دولة في إفريقيا وهي تقسيمها إلى دولتين، وربما أكثر في المستقبل حسب رأي بعض المهتمين بالشأن السوداني.

قد يكون اختياري ضمن فريق التغطية هو لأنني أغطي للجزيرة ساحة مشابهة في بعض ملامحها لجنوب السودان، حيث يطمح المواطنون غير العرب هناك للتصويت للانفصال، لكن الاختلافات كثيرة بين التجربتين، وأبرزها بين المنطقة التي أغطيها في شمال العراق (كوردستان) وجنوب السودان هو أن الحركة الكوردية وفي جميع اتفاقيات السلام بينها وبين الحكومات العراقية المتعاقبة لم تحدد أي بند فيها منح الشعب الكوردي في شمال العراق حق الاستفتاء في تقرير مصيره، وتشكيل دولته التي يحلم بها، وجملة اختلافات أخرى بين كوردستان وجنوب السودان والتي هي منح حق تقرير المصير لمواطني جنوب السودان، ولم يمنح ذلك الحق للشعب الكوردي في شمال العراق من أهمها :

- الدعم الغربي لجنوب السودان بمنحهم حق تقرير المصير، والذي تبلور في بند الاستفتاء ضمن اتفاقية نيفاشا، ولم يحصل الكورد في العراق على ذلك الدعم، بل ربما العكس فالموقف الغربي جاء في الكثير من المناسبات ضغطا على الجانب الكوردي من اجل تقديم التنازل، وعدم التطرق لهذا الحق.
- دول الجوار في جنوب السودان أجمعت على دعم جنوب السودان في حق تقرير مصيره بل باتجاه التصويت

للانفصال، على عكس دول جوار كوردستان العراق والتي تجمع على منع هذا الحق عن الكورد، بل ربما الإجماع على حربه بشأنه.

- علما أن كوردستان - العراق أكثر أهلية لتكون دولة من جنوب السودان لو نظرنا إلى المقارنة بين التجربتين من زاوية الاختلاف بينهما من حيث الفوارق التالية بين التجربتين:

- الجغرافيا: جنوب السودان الذي أصبح دولة مستقلة لم يحمل في طوال تاريخه اسمه الجغرافي الخاص به، فهو كان قاب قوسين من أن يصبح دولة وكان الخلاف جاريا حول تسمية الدولة الوليدة هل تسمى بـ (دولة جنوب السودان، أو دولة السودان الجديد...الخ) في حين أن لكوردستان اسمه الجغرافي المعروف على مدار التاريخ.
- اللغة: ليس لمواطني جنوب السودان لغتهم الخاصة حتى الآن، ولهذا تم اختيار اللغة الانكليزية لغة رسمية لهم بدلا من العربية، وهما اللغتان المعمولان بهما في جنوب السودان الآن، في حين أن لكوردستان العراق لغته الكوردية العريقة ذات القواعد الخاصة بها، وكتبت بهذه اللغة الأشعار والقصص والروايات منذ عشرات السنين،

وهي اللغة التي يتكلم بها شعب كوردستان عبر تاريخه الطويل.

- البنية التحتية: البنية الحالية في كوردستان العراق والتي تتميز بمقومات إنشاء دولة قائمة بذاتها لو اتفق على ذلك، وحصل على الدعم الدولي، في حين جنوب السودان يفتقد لتلك البنية، بل تكاد تنعدم أية بنية تحتية هناك تؤهل لدولة ناجحة.

لا أريد اسبق رحلتي إلى جنوب السودان بالتطرق إلى نقاط الاختلاف والتشابه بين كوردستان وجنوب السودان، لكنني ذكرتها من منطلق اختياري ضمن فريق التغطية والذي قد يكون التشابه بين التجربتين دفع المحررين في الجزيرة لاختياري ضمن هذه التغطية.

استفسار قبل الاستفتاء

كنت يوما جالسا في مجلس فيه السوداني والعراقي والفلسطيني والسوري والقطري والأردني والمصري والموريتاني والكويتي والجزائري أولئك كانوا يديرون مكاتب الجزيرة في العالم العربي، وبينهم كان أيضا إخوة عرب يديرون مكاتب الجزيرة خارج العالم العربي في لندن، وبرلين، وباريس، وواشنطن، وطهران، وإسلام آباد وكابل، وكنت الكوردي الذي أدير مكتب اربيل، تطرق صاحبنا السوداني بألم وهو يلوم العرب كونهم تركوا السودان للتقسيم، ولم يحركوا ساكنا، فالسودان قاب قوسين أو أدنى من ذلك، ولا يتحدث الإعلام العربي عن خشيته، شاركت حوارهم مستفسرا لماذا موقف الإعلام العربي من تجربة إقليم كوردستان يختلف عنه من تجربة جنوب السودان؟ وأطرح الآن مجددا الاستفسار نفسه؟

قلت في ذلك النقاش وأقوله الآن في بداية كتابي هذا، الإعلام العربي نسي جنوب السودان ليتفرغ لكوردستان ويقدم

خشيته من الانفصال عن العراق، فالمواطن العربي في الشارع لم يكن يعرف ما المشكلة في جنوب السودان وهي في طريقها للانفصال. لكنه يعرف أن هناك جزءا من شمال العراق سينفصل دون أن تكون هناك بوادر لذلك، فلا اتفاقيات بين الكورد والعراق على هذا التقسيم لتنفذ على ارض الواقع، ولا مطالبات كوردية بحق تقرير المصير، «كانت هناك مطالبات وإلحاح من الطرف الكوردي بإدراج حق تقرير المصير وإجراء الاستفتاء في كتابة قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية وكذلك كتابة مشروع دستور للعراق أسوة بجنوب السودان ولكن ....» وتجد الآن السياسي الكوردي هو احرص من غيره في العراق في تصريحاته ومواقفه على وحدة العراق، بل لا يألو جهدا في دفع شك الانفصال عن نفسه، يبدو منه أنه أكثر حرصا من غيره على وحدة العراق، ولم يمنع ذلك الآلة الإعلامية العربية في مناسبة وغير مناسبة من اتهام تجربة إقليم كوردستان العراق والعاملين عليها بالانفصال، متهمة السياسيين بالانفصاليين، بل يذهب الاتهام إلى أكثر من ذلك عندما يسمى إقليم كوردستان بإسرائيل ثانية في حين أنها الأقرب لفلسطين ثانية! ليثير بذلك عاطفة المواطن العربي ضد هذه التجربة، بل أحيانا ضد الكوردي، هذا وجنوب السودان في طريقه للانفصال، بل يكاد هذا الانفصال يكون مرحبا به من قبل الجامعة العربية ودولها،

وإقليم كوردستان لا يزال يبحث مع بغداد في مشكلات باتت عالقة رغم أن الدستور العراقي وضع بوضوح خارطة حلها .

بداية القصة

لم أرد طلبا لمهمة يطرحها التحرير في الجزيرة علي، سواء كانت برغبتي أم لا، بل أرى نفسي مندفعا للقيام بتلك المهمة كي أجيدها، من منطلق الحديث النبوي الشريف رحم الله امرءا إذا عمل عملا أن يتقنه، ومن منطلق أداء واجبي كمراسل في الجزيرة، لهذا عندما اقترح علي قسم التكليفات في الجزيرة ذهابي ضمن فرق الجزيرة لعمل تقارير استباقية عن الاستفتاء في جنوب السودان، قبلت دون تردد .

وبعد أن فكرت في الموضوع، سعدت من منطلق أنني أطمح في مهمة للجزيرة خارج إقليم كوردستان، وكنت اقترحت على الجزيرة قبل ذلك بأنني اطمح إلى ذلك، ومرة اقترحت تغطية للجزيرة من ديار بكر في تركيا، أغطي الشأن الكوردي من هناك، أو شأن الجالية الكوردية في أوروبا، ولا أزال اطمح في ذلك. واقترحت أيضا التغطية من أماكن بينها مصر ولبنان وغيرها، لكن التكليف جاء لمهمة في جنوب السودان ولم أكن

أفكر في ذلك، ولا أخفيكم بأن قلقا ما انتابني بشأن الذهاب والتغطية هناك، لأن المنطقة تلك كانت بالنسبة لي مجهولة، ولم تكن لدي خلفية عن قضية جنوب السودان ومشكلتها تؤهلني للإبداع في عمل تقارير للجزيرة من هناك، وقلق الوصول إلى هناك عن أي طريق سيكون؟ شعرت بصعوبات ما ربما ستقع أمامي في رحلتي إلى جنوب السودان، لكن التفكير بمتعة النجاح في المهمة أنساني الصعوبات، وشجعني للاندفاع بخطوات البدء في رحلة إلى جنوب السودان.

الإعداد للمهمة

اخترت مصورا من مكتبنا في اربيل ليرافقني، وكان هو الزميل محمد ملا الحاج عمراني، ومرافقته معي خفف عني بعضا من هم النجاح في المهمة، فكلانا نعمل معا منذ ست سنوات، انتظرنا شهرين في سبيل الحصول على تأشيرة دخول السودان، في الشهرين خضت عميقا في خطة العمل التي أرسلتها لي الجزيرة، حسب تلك الخطة كان المطلوب ثلاثين تقريرا كنت مكلفا بعمل سبعة منها، والبقية وزعت على أربع فرق خارجية أخرى للجزيرة توجهت إلى جنوب السودان، بحثت في الانترنيت عما كتب من موضوعات ومحاور التقارير التي سأنفذها هناك وهي: (1- معالم السيادة في جنوب السودان من علم ونشيد وطني ، 2- تغيير المناهج الدراسية في المدارس، وحل اللغة الانكليزية محل العربية، 3- الطرق في جنوب السودان وربطها بدول الجوار، 4- اهتمام الإعلام الأجنبي بتغطية الاستفتاء، 5- اقتصاد جنوب السودان من خلال سوق

جوبا 6- توريت التي بدأت منها شرارة الحرب، 7- قصة محارب جنوبي قديم).

معالم السيادة بين
جنوب السودان وكوردستان

بحثت في الانترنيت عن معالم السيادة هناك في جنوب السودان، فرأيت علما هو علم الحركة الشعبية التي تحكم الجنوب، كانت سابقا بقيادة جون قرنق الذي قتل في حادث سقوط المروحية التي كانت تقله من أوغندا المجاورة إلى جنوب السودان في الثلاثين من يوليو عام ألفين وخمسة، ليحل محله سلفاكير ميادريت وهو الذي يرأس حكومة الجنوب (وقت الاستفتاء)، إذن علم حزب يرفرف حاليا كعلم لكيان وليد ليصبح عما قريب دولة جديدة، ومحاولات حثيثة من الحركة الشعبية كي يبقى علمها ليصبح علم الدولة المرتقبة. هي أيضا نقطة يختلف بها كوردستان عن جنوب السودان فكوردستان تجاوزت مرحلة أن يفرض حزب ما حتى ولو كان حاكما، بل وله تاريخ نضالي طويل، أيا كان ذلك الحزب، أن يفرض علمه كي يصبح علم إقليم كوردستان حاليا. فللإقليم علمه، وهو ذلك

العلم الذي تتخذه الأحزاب الكوردية في أجزاء كوردستان الأخرى كعلم مرتقب لدولة الحلم، وإذا كان الحلم صعب التحقيق فلا ضير أن يكون علما لإقليم، أو منطقة، أو علم أي كوردي يرفعه عاليا بين المناسبة والأخرى، واكتسب علم كوردستان سمعته وقوته من كونه علم أول دولة كوردية في جمهورية مهاباد عام ألف وتسعمائة وستة وأربعين، وئدت حينها وهي كانت في مهدها، وأعدم حاملها القاضي محمد من قبل ايران عام ألف وتسعمائة وسبعة وأربعين، فسلم العلم للزعيم الكوردي ملا مصطفى البارزاني الذي كان قائدا عسكريا في جمهورية مهاباد، حمل العلم لينتقل من جيل لجيل، قبل أن يقرر برلمان (الدولة الكوردية) في عالم حلم الكورد علما جديدا أو يبقي عليه.

أما النشيد الوطني فعرفت من خلال بحثي الأولي عن جنوب السودان أن لجانا تشكلت لاختيار الشعر، ومسابقة أعلنت عنها بين الشعراء لمن سيفوز بالشعر الذي سيكون نشيدا وطنيا لدولة جنوب السودان القادمة، وفرقا موسيقية تشكلت للمسابقة من اجل الفوز باللحن، والمنافسة حامية بين المثقفين من الجنوب لمن سيفوز بشرف الشعر أو شرف اللحن الذي سيكون لأول دولة جديدة تعلن عنها في القرن الواحد والعشرين، تذكرت (أي رقيب هه ر ... ماوه قومي كورد زمان) فهو ذلك

النشيد الذي فرض نفسه على كل كوردي ثائر من اجل حقوقه في أي مكان كان، فعرفت أن للكورد تاريخا وثورات تختلف عن الآخرين، وحلمه بدولته جعل له العلم والنشيد حتى قبل أن يقترب من تحقيق الحلم.

تغيير المناهج الدراسية

تقريري الآخر كان عن المناهج الدراسية، ومحاولة تغيير اللغة العربية التي كان معمولا بها منذ أن وجد التعليم في الجنوب. من خلال قراءتي وجدت العملية مشابهة عندما كانت هناك محاولات كوردية من اجل التغيير في المناهج الدراسية أصلا، وتغيير اللغة العربية لكن في كوردستان إلى اللغة الكوردية، وكما واجهت محاولات كوردستان مصاعب، ففي الجنوب أيضا هناك عوائق ومصاعب تقف في طريق هذا التغيير، كان يتحدث عنها المثقفون في الانترنيت، رأيت في بحثي الكثير من المثقفين الجنوبيين في السودان حريصين على التغيير، وإلغاء كل أثر للغة العربية التي ينظر إليها كلغة محتل، لكن في المقابل رأيت آخرين غير متحمسين للبدء بالتغيير في المناهج وفي لغة التدريس، هم كانوا ينظرون إلى أن الأولى إزالة عوائق التعليم من أمية وفقر وجهل وعدم وجود بنية تحتية للتدريس من مناهج ومعلمين وما إلى ذلك قبل الخوض في هذه المعركة غير المحمودة العواقب من

ناحية آثارها على التدريس الضعيف أصلا. وذهبت إلى أبعد من ذلك لأعرف واقع التعليم هناك في جنوب السودان، فظهر لي الواقع مخيفا عندما سجلت إحصائيات اليونيسيف أن أكبر نسبة من الأطفال لا يلتحقون بالمدارس في العالم هي في جنوب السودان، فانحزت إلى أصحاب الرأي الذي يقول أن التفكير في إزالة عوائق التعليم والتطوير بها أولى من التفكير في عملية تغيير المناهج والتغيير في اللغة.

الطرق في جنوب السودان

أما بحثي عن موضوع الطرق في جنوب السودان والذي كان موضوع احد تقاريري، فأوصلني لنتيجة مهولة، عندما عرفت بأنني سأدخل منطقة تكاد تكون معدومة الطرق، فأكثر من ثلاثة عشر ألف كيلومتر، يحتاج العمل عليه لفتح الطرق فقط كي يتسنى التنقل بين مناطق الجنوب.

عندما دخلت هناك شعرت بمدى التخلف ومدى فقر ومعدومية البنية التحتية، فقبل أن أصل بكم إلى جنوب السودان في رحلتنا هذه اكتفي لأقول لكم بأن مسافة مائة كيلومتر بين جوبا عاصمة الجنوب وتوريت التي اندلعت فيها أول شرارة القتال بين الجنوب والشمال في السودان قبل أكثر من نصف قرن، المدينة التي كان يجب أن اصل إليها لعمل تقرير عن كيفية بدأ القتال في جنوب السودان واسرد القصة من هناك، قضينا تلك المسافة بالسيارة في وقت استغرق أكثر من سبع ساعات، فأظن أن جزءا من صورة الطرق سيتضح لكم من خلال النموذج

الذي ذكرته، وعندما قرأت بان ثلاثة عشر ألف كيلومتر يحتاج العمل عليها في جنوب السودان لتسهيل التنقل، علمت بان ذلك التسهيل يعني فتحها فقط دون التبليط، فتبليط كيلومتر واحد من الطرق في الجنوب يكلف حكومة الجنوب مليون دولار أمريكي، فتصور كم سيحتاج الجنوب لبناء ولو بنية تحتية متواضعة، وهنا أيضا اتضح لي جليا الفرق الكبير بين إقليم كوردستان وجنوب السودان.

التهيؤ للتغطية

كنت أتهيأ لتغطية أحدث دولة على وشك أن تنشأ، وكنت استعد لتصوير معالم تلك الدولة قبل أن تعلن عن نشوئها: معالم في السيادة، وفي البنية التحتية، وربطها بجوارها الداعم لها، وفي التربية والتعليم، والاقتصاد، ومعالم تاريخها القتالي من خلال قصة محارب قديم، وقصة توريت تلك البلدة التاريخية التي لولا أن اندلعت منها شرارة الحرب الأولى قبل أكثر من ستين عاما، ربما لم نكن لنعرف اسمها.

اقتصاد جوبا عاصمة جنوب السودان، ونعني بذلك مركز اقتصاد الجنوب، الذي يعيش عملية مخاض نشوء دولة جديدة، كان هدف تقرير من تقاريري السبعة التي أصبو إلى عملها في رحلتي إلى جنوب السودان، بحثي في شبكة النت عن اقتصاد الجنوب قبل وصولي إلى هناك أوصلني إلى المعلومة أن 98٪ من موازنة جنوب السودان هي من واردات نفط السودان، في حين موازنة السودان ككل تعتمد على 56٪ من تلك الواردات، وحسب

اتفاق السلام المبرم بين الطرفين: نظام الحكم في السودان والحركة الشعبية في الجنوب، عام ألفين وخمسة تقسم واردات نفط السودان ككل إلى قسمين متساويين 50٪ للشمال و50٪ للجنوب، رغم أن مساحة الشمال قد تكون بضعفي مساحة الجنوب، وهذه النقطة من الاتفاق أيضا تشكل إحدى أهم نقاط اختلاف جنوب السودان مع إقليم كوردستان العراق الذي يحصل حسب الاتفاق مع بغداد على 17٪ من موازنة العراق التي تعتمد كليا على تصدير النفط.

بودي أن أسبق وصولي إلى هناك لأسرد جزءا من حوار جرى بيني وبين مواطن جنوبي كان يستفسر مني عن نفط العراق ونفط كوردستان العراق والخلاف على كركوك وعن نفط كوردستان، فقلت له بأننا نحصل على 17٪ فقط على كل موازنة العراق من النفط وغير النفط، وحتى النفط الذي ينتجه إقليم كوردستان يحصل الإقليم منه على 17٪ فقط، فضحك المواطن من جنوب السودان مني ككوردي من إقليم كوردستان، قال وكيف تقبلون بهذه النسبة فقط؟ وزاد دون أن ينتظر جوابا مني وقال: "لا بل حتى العراق كدولة ومواطنين تبدو أنها تكثر عليكم هذه النسبة، وتمن عليكم بها، وتسبب لكم المشكلات وتتهمكم بالانفصال" وزاد من قهقهته ولم يكن أمامي إلى أن أركز على بياض أسنانه، وبينها كان لسانه شديد الحمرة

يرتجف بينها من الضحكة، وسط سواد، يعلم الله كيف أن له في خلقه شؤونا، فانا وهو من عباد الله، ولله في خلق كلينا شؤون وشؤون، (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ..)، وبعد أن أنهى ضحكته التي وزع بها رذاذا من سائل فمه نحوي، قال لا تقبلوا بذلك أبدا .. لا تقبلوا ..!!

مصادر نفط السودان تقع في جنوبه، إلا أن طرق وموانئ التصدير تقع في الشمال، ومن الصعوبة بمكان أن يفكر الجنوب في نقل طرق وموانئ التصدير نحو الجنوب عن طريق دول الجوار حتى ولو حصل الجنوب على طموحه في الانفصال عن السودان وتشكيل دولته، باعتبار ميلان الأرض في السودان هي من الجنوب كمنطقة أعلى باتجاه الشمال كمنطقة أدنى، والنفط ينقل عبر الأنابيب من مصادره في الجنوب إلى موانئ التصدير على شواطئ البحر الأحمر في الشمال بدون استخدام المضخات، وهذا يقلل من تكاليف التصدير، وأي نقل لهذا النفط من مصادرها في جنوب السودان باتجاه موانئ في دول الجوار ككينيا أو جيبوتي أو جمهورية الكونجو الديمقراطية سيحتاج ذلك إلى أموال كثيرة وسنين قد تصل إلى خمسة أعوام، إضافة إلى مضخات عملاقة لدفع النفط إلى تلك الموانى، كميناء مومباسا في كينيا وسيعطي ذلك الفرصة للشمال بالتفكير في الاستغناء عن نفط الجنوب والبحث عن النفط في الشمال حيث

هناك بوادر تشير إلى اكتشافات نفطية في الشمال، وسينفرد الشمال بالبنية التحتية النفطية الموجودة حاليا من (الأنبوب الناقل من حقول الإنتاج إلى مصافي التكرير وإلى ميناء التصدير، المعدات الحقلية، معدات المعالجة المركزية، مصافي التكرير، مستودعات التخزين) ليبدأ الجنوب من الصفر تقريبا لبناء بنية تحتية جديدة له.

وظهر لي الاختلاف جليا في هذه النقطة بين جنوب السودان، وإقليم كوردستان العراق، فالنفط في العراق متواجد في جميع مناطق العراق، وأصلا النفط في مناطق الإقليم لم يكشف عنه ولم يعمل عليه زمن النظام السابق، عدا المناطق المتنازع عليها والتي كانت سلطات النظام العراقي زمن صدام حسين تشد قبضتها عليها، وربما لان العراق لم تقدم على الكشف والعمل على نفط هذه المناطق وذلك لحاجتها لأموال أكثر من الأموال التي ستصرف في الوسط والجنوب كون المنطقة جبلية ويحتاج لالتزامات أمنية إضافية، وكذلك صعوبة السيطرة عليها في حالة تطور الأمور لصالح الثورة الكوردية، وهنا العراق كدولة ستكون اقل خسارة من السودان كدولة إذا انفصلت منها إقليم كوردستان في مشروع دولة مستقبلية، مقارنة بخسارة السودان بانفصال جنوبها.

نفط إقليم كوردستان سواء المكتشف عنه والمعمول عليه حاليا، أو الموجود أصلا في المناطق المتنازع عليها ككركوك هي في الأصل تمر عبر أراض إقليم كوردستان العراق إلى ميناء جيهان التركي ولا يحتاج الأمر في كوردستان عن البحث عن موانئ جديدة كما في حالة السودان، ولا يحتاج لاتفاقات جديدة مع العراق ليمر نفط كوردستان عبر أراضيه إلى موانئ في جنوب العراق، لكن يبقى الاختلاف جليا ايضا في أن جنوب السودان قاب قوسين أو أدنى من الدولة، وإقليم كوردستان ليس أمامه مشروع دولة.

غير قضية النفط قرأت الكثير من غزو المستثمرين ورجال الأعمال في دول الجوار السوداني في الجنوب إلى جنوب السودان، والتسابق في البحث عن موطأ قدم لهم هناك، حتى يكون لهم شأن ذو بال في الدولة الجديدة، ليس فقط من مستثمرين ورجال أعمال بل حتى من العمال من دول الجوار ككينيا وأوغندا، واريتريا والصومال، فيكاد جنوب السودان وبخاصة عاصمته جوبا تكون منطقة محتلة تماما من عمال هذه الدول، وما كان ينشر من مقالات في اقتصاد جنوب السودان أشار إلى انه قلما تجد السوداني بين من تراهم في جنوب السودان! حتى الخضروات والطماطم والبصل يأتي إلى

جنوب السودان من دول الجوار، في حين تعرف السودان من البلدان الغنية زراعيا في المنطقة.

تكاد تكون البنية التحتية لاقتصاد جنوب السودان صفرا، وسينشأ عليها دولة، والإقبال كثيف عليه، والاهتمام كبير به سواء من الغرب كأمريكا والدول الأوروبية، أو من الدول الإفريقية، هذا الاهتمام قل نظيره في غيره من المناطق، وكعادة العرب فهم غافلون عن ثورة اقتصادية ربما ستنفجر هناك في جنوب السودان على غفلة منهم، فالمنطقة لا لكونها نفطية وحسب بل لكونها أكثر المناطق ملائمة لصناعة ثورة زراعية وسياحية ومن يدري ربما لثورات أخرى، فلا يعقل أن يكون التشجيع الغربي لانفصال جنوب السودان هو مجرد لحل مشكلة منطقة عاشت حربا، فلو كان حل الدولة أولى لحل مشكلة حرب حلت بالسودان فربما الأولى لمثل هذا الحل أن يجد طريقه لأكبر شعوب المنطقة يعيش بدون دولة، ويحلم بدولة قبل أن يحلم بها غيره.

هذه البنية الفكرية عن اقتصاد جنوب السودان تكونت لدي من خلال متابعات واستعدادات للبدء برحلة إلى جنوب السودان، لعمل مشروع تقرير عن اقتصاد دولة تكاد تنشأ، تقرير تلفزيوني لا يستغرق وقته الدقيقتين والنصف من البث

على شاشة الجزيرة، ولنا كلام عن رحلة تحمل بين طياتها معلومات ومفاهيم، بل تحمل تجربة فيها الكثير من متعة المقارنة ومتعة الكشف عن نقاط الشبه والاختلاف بينها وبين تجربة إقليم كوردستان.

قصة الحرب

قصة الحرب في جنوب السودان كانت مقترحة لتقريرين لي هناك، الأول عن توريت تلك البلدة التي اندلعت فيها شرارة الحرب الأولى، منتصف القرن الماضي، والحرب على وشك أن تصل بالبلد إلى التقسيم، وقصة محارب قديم يسرد من خلال حياته ما أذاقته الحرب من معاناة، وكيف يرى مستقبل البلاد بعد كل تلك الحرب، وهل كمحارب قديم يرى الحل في الانفصال، أو يمكن أن يعيش الشمال والجنوب معا دون حرب.

بدأت ابحث عن توريت قبل أن أتوجه إلى هناك، قبل أن تطأ قدمي ارض توريت، عرفت أنها بقعة جميلة، تكسوها الغابات من جميع جهاتها، فيها ربيع لا يتعب، كما الربيع الذي حلمت به مرة في مقطوعة أدبية لي في رسالتي المطبوعة بالكوردية عام ألفين بعنوان (من وحي الاشتياق) حملت المقطوعة عنوان (وعشقت الموت) كتبت فيها جملا حلمت بربيع كما أريده فوصفته كما يلي:

(نعيش الآن بعد الموت حياة لم نره من قبل.. تلك هي واحة عبارة عن جمال على جمال، جبال عالية وأودية عميقة وشلالات تسيل بمائها عبر أطراف الجبال، أنهار تبث في الأودية خريرا هو ألحان الجبال..

السماء فوقنا صافية زرقاء، الأرض من حولنا خضرة دائمة.. هي رحلة ربيع ليس بعده صيف ولا قبله شتاء.. تلون (كلانا) بلون النهر والجبل والسماء الصافية.. لون الينابيع التي كانت تتفجر الصخور بها ..كنا جميلين ونزداد جمالا لحظة بعد أخرى، عندها رضينا بالموت وفرحنا له.. فلماذا يكره الناس الموت؟!)

عندما قرأت عن توريت، تشبهت لي تماما بتلك القطعة التي حلمت بها قبل أكثر من عشرة أعوام، في الوقت الذي رأيت توريت جميلة، لم أر الأرواح البشرية التي تعيش في تلك البقعة سعيدة، ولم أر تلك الأرواح تعيش ربيعها بل كانت تعيش خريفها، قرأت عن توريت ورغم جمالها شعرت بأنها تعيش خريف التاريخ.

عندما تصورت لي توريت بجمالها، كان جمال كوردستان تتراقص أمام عيني، جمال الجبال والوديان بل جمال ناسها، جمال رجالها ونسائها، جمال شيوخها وأطفالها، جمال الدبكة

والرقصة الكوردية، جمال استراحة البيشمركة عندما كانوا يقضون استراحاتهم بالأغاني والدبكات، بل حتى في التعازي عندما كان الولد الشهيد ترجع جثته من مواقع القتال كانت أمنا الكوردية تغني به كما تغني الأم بالعريس، كنت طفلا أرى المنظر وأقول: الابن قد مات، وكلنا نكره الموت فلماذا الأم تغني؟ لكنني وبعد أن كبرت عرفت قيمة تلك الأم التي ودعت ابنها بأغنية العرس، لأنها تعرف بأن العدو يريد بقتلنا أن يحزننا ويجعلنا نعيش في مأتم، لكننا نتحداه فيجب أن نبدو سعداء دوما، وكنت في معايشتي أثناء عمل تقارير في مواقع لحزب العمال الكوردستاني، أرى مقاتلات وهن يستعدن لحياة الجبل يهتفن بأعلى الصوت (إما النصر، أو النصر) أي لا شيء غير النصر، فقلت شعب يملك هذه النماذج، وهذه الروح هل سيشهد غير النصر؟ وكان السؤال المستعصي على الجواب دوما، إذا كنا هكذا فلماذا تهضم حقوقنا، ولماذا ليست لنا دولة إذن؟!

سؤال آخر كان يلح علي بعد تكليفي بالذهاب إلى جنوب السودان، وبعد بحثي عن توريت، فقلت هل سأجد منطقة في إفريقيا، بل في السودان جمالا يضاهي جمال كوردستان؟ قرأت عن توريت فبدت لي جميلة كذلك، ولا أريد أن أصفها بأنها أجمل من كوردستان فلا منطقة تبدو لي على الأقل أجمل من كوردستان.

لنقف هنا كي لا يذهب الحديث بنا بعيدا عن توريت، قبل عام واحد من استقلال السودان من الاحتلال البريطاني، بالتحديد في الثامن عشر من آب، أغسطس من عام ألف وتسعمائة وخمسة وخمسين تمرد ضباط جنوبيون من توريت على الجيش السوداني، والتمرد بدأ بعد الأوامر العسكرية بنقلهم إلى الشمال ورفض أولئك الضباط الأمر فحصل تمرد، بعد استيلاء الجنوبيين على مخازن الأسلحة ومواجهة الجيش، تحولت المواجهات لقتل المدنيين وبدء حرب أهلية أكلت الأخضر واليابس كما يقال، قتل على أثره عدد من ضباط الجيش واعدم بعضهم في جوبا، وأعقبت ذلك مجازر متبادلة بين الطرفين.

حصل هذا بعدما كان الجيش البريطاني يستعد للرحيل من السودان، يقول الكثير من المراقبين للشأن السوداني بان الاحتلال البريطاني، هيأ لسودان أرضية حرب ومهد لها قبل المغادرة.

سودان شاسع في الأراضي وهش في السيطرة عليه، فيه الكثير من بؤر التوتر التي تجعل من البلد الكبير الواسع عرضة للحرب والمشكلات الداخلية والانقسام، ومن السهولة تفسير كل حرب في عالمنا بأنه مؤامرة من الاستعمار، لكن السؤال الذي

ننسى أن نسأله أنفسنا هو: لماذا نحن جاهزون لتنفيذ مؤامرات الاستعمار؟ هل ننسى الأسباب الكامنة فينا وراء مشاكلنا لنعلق كل تلك المشاكل على شماعة من يعادينا ومن يحتلنا؟ الأولى أن نزيل الأسباب الكامنة فينا ومن ثم نفكر في من يريد بنا سوءا لنتمكن من مواجهته.

هكذا بدأت حرب الجنوب في السودان، لم تكن في بدايته حرب حقوق، ومطالب، ولم تكن حرب دعوة لتقرير مصير شعب أو منطقة، ولم تكن حربا لتقسيم بلد، أو استقلال إقليم، ونرى أن الحرب وبعد خمسين سنة تصل بأصحابها إلى دولة، وباتفاق الطرف الآخر، عندما عرفت ذلك تبادر لذهني، تاريخنا الكوردي، وهو تاريخ ثورة، ثورة مطالب وحقوق، لكن كلها كانت تخمد، ولم تصل بالكورد إلى تلك الحقوق والمطالب، وإلى دولة الحلم، ثورات بارزان، ثورة شيخ محمود الحفيد، ثورة الشيخ سعيد بيران، ثورة القاضي محمد، ولا تزال للكورد في كل منطقة هو فيها مشكلة لا تجد طريقها للحل، فكرت هل هناك فرق بيننا نحن الكورد في كوردستان وبين المواطنين في جنوب السودان من حيث الوعي؟ وعي الثورة، ووعي المطالب، ووعي استثمار الفرص؟ ووعي في تشكيل العلاقات؟ ووعي في جذب القوى الدولية لقضيتك..؟ بحيث توصلهم إلى دولتهم، وتبقينا في حلمنا؟

من خلال قراءتي الأولية لم أصل إلى نتيجة تدل بان لدى جنوب السودان وعي أفضل من الوعي الكوردي، فبقي السؤال يتردد فلماذا النتيجة مختلفة بين القضيتين؟

يذهب التفكير بي الآن وأنا اكتب هذا الموضوع، وقبل أن أخوض في تفاصيل رحلتي إلى جنوب السودان، هل لو أن الكورد تحركوا سلميا، في كل مناطق تواجدهم وطالبوا (الشعب يريد دولته) وكما تطالب الشعوب العربية اليوم بـ (الشعب يريد إسقاط النظام) فيسقط نظام بعد آخر، في حيرة القوى الدولية، ومن آلات استبداد تلك الأنظمة، لتكشف للكل بان القوى الكامنة في الشعوب لا يمكن لأحد أن يقف في طريقها، فهل لو استغل الكورد تلك القوة وخطط لها في عصر الثورات العربية، لتحقق له ذلك المطلب؟ حتى لو لم يتحقق لعرف من في عالمنا اليوم بأن هناك شعبا يريد دولة، يعيش في زمان ومكان غير مجهولين، ولكتبنا العناوين الرئيسية للصحف، ولأشغلنا الإعلام، بقضيتنا، ولحركنا المياه الراكدة حول قضيتنا في أروقة السياسة الدولية.

بين المطارات.. أفكار وآراء

بعد أن حصلنا على تأشيرة السفر إلى السودان، وموافقات الدخول إلى تلك الدولة كصحفي، لعمل تقارير من ذلك الجنوب الذي يصبح يوما بعد آخر غير مرغوب فيه لدى الحكومة التي تحكم البلاد، نظرا لموقف الجنوبيين الذي يتجه نحو الانفصال من الدولة، حددنا وجهة سفرنا من كوردستان إلى تركيا، ومنها للخرطوم عاصمة السودان، ومنها إلى جوبا عاصمة جنوب السودان، وكان علينا أن نقضي ساعتي طيران من اربيل إلى اسطنبول ومنها أربع ساعات طيران إلى الخرطوم، ومن الخرطوم ساعتي طيران إلى جوبا، فلقد علمنا أن لا طريق بريا من الخرطوم إلى جوبا، وإذا اضطر أحد للسفر من الخرطوم إلى جوبا برا، فعليه أن يقضي رحلة غير محمودة العواقب لأكثر من أسبوع في صحاري وجبال ووديان، وبين قبائل ومناطق قد تنهك من قوى المسافر برا من الخرطوم إلى جوبا قبل أن يصل هناك، كل هذه الأراضي الشاسعة ولا يزال الناس يقاتلون

بعضهم بعضا على بقع من هذه الأرض، وكأن الأرض لا تسعهم! أما النقل النهري عبر النيل، فذلك شريان الحياة الذي يمر عبر العاصمتين جوبا أولا ومن ثم الخرطوم، فيتم النقل عبرها للبضائع فقط وبخاصة الزراعية منها بين خرطوم وجوبا، ولا يصلح النقل النهري لمسافرين مثلنا، فليس أمام أمثالنا يريد الوصول إلى جوبا من الخرطوم إلا جوا.

بين المطارات، أربيل أولاً

مطار أربيل ييسر ربط كوردستان كإقليم بباقي العالم، وهذا ما ساعدنا كمواطني هذا الإقليم، في التوجه لأي منطقة في هذا العالم بدون أن نمر ببغداد، ويجب أن يفتخر كل مواطن هنا بهذا الانجاز الكبير، ويفتخر بكل خطوة مماثلة تقربنا للعالم الكبير من حولنا، فإذا لم نكن مستعدين للاستقلال ككيان أو كدولة، فمن المهم أن نستقل في محطات التواصل مع الخارج كمحطة مطار أربيل، ويجب أن يفتخر واحد منا أيضا بالتطور الذي يحصل يوما بعد آخر في هذا المطار، الذي يحاول أن يرتقي لمستوى مطارات كبيرة في العالم من حولنا، فرغم حداثة عهد المطار مقارنة بثلاثة مطارات أخرى تنقلنا بينها وهي (مطار أتاتورك في اسطنبول، مطار الخرطوم، مطار جوبا) إلا أنه أصبح يفوق الكثير من المطارات، في التعامل مع المسافرين، فيمكنني أن أضع مطار اربيل في تسلسل المطارات الأربع الذي تنقلنا بينها في رحلتنا ثانيا بعد اسطنبول، ما كان يميز مطارنا

هو حداثته، والأساليب المعاصرة في التعامل مع المسافرين، تلك الحداثة والمعاصرة كانت مفقودة تماما في مطاري الخرطوم ومن ثم جوبا، لكن يبقى البون شاسعا كي يصل مطارنا إلى مستوى ما في اسطنبول.

مطار أتاتورك

عند التهيؤ للسفر من اسطنبول إلى الخرطوم، عبر الخطوط الجوية التركية، وتسليم ما لدينا من حقائب وأجهزة لشحنها إلى الطائرة التي ستقلنا إلى الخرطوم، لم يستلم المطار الكاميرا ومرفقاتها، بطريقة استلامه الحقائب والأمتعة الأخرى، فظننت أن منعا ما قد يعيق حمل أجهزتنا، إلا أن المكلف بتسليم هذه الأمتعة منا، وبعد أن علم أنها كاميرا ونحن صحفيون، قال حفاظا على سلامة هذه الأجهزة يجب أن لا يتم استلامها بطريقة استلام الحقائب العادية بل بطريقة خاصة بها، فاتصل بقسم آخر فجاء واستلم منا الكاميرا ومرفقاتها في عربة خاصة بعد أن كبسها حفاظا على سلامة تلك الأجهزة، أقول هذا لأقارن هذا التعامل مع هذه الأجهزة بين مطار أتاتورك ومطار جوبا .

مطار جوبا

سأسبق مطار الخرطوم بمطار جوبا، رغم أننا وصلنا الخرطوم قبل جوبا، وذلك لأنقل مشهدا من هناك وأقارنه بما شهدناه في مطار أتاتورك، بعد وصولنا مطار جوبا، انتقلنا إلى صالة هي أشبه بغرفة عادية من صالة مطار، وانتظرنا نحن المسافرين الأمتعة، ليستقبل كل واحد منا متاعه ويتخذ وجهته، رأيت عربة ساحبة تراكتور قديمة اقتربت من الطائرة وحملت الأمتعة وجلبتها إلى نافذة غرفة الانتظار، ونزل عمال الساحبة، فانزلوا الأمتعة والحقائب من عربة الساحبة ورموا بها من داخل نافذة غرفة الانتظار إلى داخل الغرفة، في عدم مراعاة لهذه الحقائب والأمتعة، فقلت عن الاحترام الذي لاقته أجهزتنا في اسطنبول: «تم إلغائه هنا في جوبا» وعرفت قيمة حسن التعامل مع من يقدمون إليك من خارج بلدك!

مطار الخرطوم

بعد أربع ساعات في الجو، كنت أفكر في استراحة سريعة تخفف من تعب السفر، وكنت متفائلا في ذلك، فموافقات الدخول ومعنا أجهزتنا قد تمت من قبل مكتبنا في الخرطوم، وكان هناك ممثل من وزارة الإعلام السودانية في استقبالنا بمطار الخرطوم لتسهيل أمر دخولنا وبالتالي تجنب الإحراج مع الإعلام الخارجي الذي نمثله نحن، إلا أننا وبالرغم من ذلك تفاجئنا بغير ما كنا نظن، فتم تأخيرنا بسبب الكاميرا ومرفقاتها لأكثر من ثلاث ساعات، دون أن يتم تسيير معاملات الدخول ومعنا أمتعتنا لخطوة واحدة، فالموظفون كانوا يقومون بمهامهم في تلك الساعة المتأخرة من الليل بلامبالاة منقطع النظير، وكان عدم الاهتمام بالمسافر في المطار من قبل الموظفين السمة البارزة في أسلوب تعامل موظفي المطار مع المسافرين، والعشرات من المسافرين العاديين من المواطنين السودانيين في مطار الخرطوم يفتحون حقائبهم وليس فيها غير الملابس وهدايا بسيطة جلبت من الخارج، ينتظرون لساعات حتى يتم

الكشف عنها ودفع الضريبة، ومن ثم يمن المطار على المسافر بتجاوز عقبة المطار والدخول إلى الخرطوم، بعد انتظار دام أكثر من ثلاث ساعات وتدخل من ممثل وزارة الإعلام السودانية تم التفضل علينا بالسماح بالدخول، وتحمل ممثل وزارة الإعلام تعب الانتظار بدلا منا لإخراج أجهزتنا من المطار.

كوردستان أكثر تهيئة للدولة

من خلال نظرة مقارنة أولية بين كوردستان حيث أنا مواطن منها، وبين جنوب السودان عند أول رؤية لي لعاصمتها جوبا تبين لي أن كوردستان أكثر استعدادا لدولة من جنوب السودان، أكثر تهيئة في كل شيء، فكوردستان تكاد تمارس دور الدولة في منطقتها دون الحديث عن الدولة، في حين لم تمارس بعد جنوب السودان ذلك الدور لكن الحديث يجري عن الاستعدادات للإعلان عن تلك الدولة، حتى المواطن في كوردستان لديه مؤهلات وعي الدولة أكثر من المواطن في جنوب السودان، لكن يبقى كيف يمكن توجيه الجو العام الداخلي والخارجي في كوردستان نحو صناعة الدولة، الصناعة الذهنية، الصناعة العملية، الحرص على أن تكون لك دولة، في الفكر والعاطفة والممارسة.

من الجو

عندما تعلو بك الطائرة، يصغر كل من على الأرض رويدا رويدا، حتى يكاد يصبح صفرا عندما تصل الطائرة لطريقها فوق الغيوم، هناك يشعر الإنسان أكثر، بسخافة المشاكل بين هؤلاء البشر، فالأراضي الشاسعة على الأرض تسع لأضعاف أضعاف هؤلاء، ولو استمر التكاثر بينهم لآلاف السنين فستبقى الأرض تسعهم، وعندما تعود بك الطائرة لتهبط على الأرض، وتقترب رويدا رويدا، ترى أن هذه المساحات الشاسعة تقل، والمجمعات البشرية تكبر، والبشر الذي أصبح صغيرا في الجو يعود لكبريائه، حتى أن تخرج من الطائرة وتسير في الأرض لترى هؤلاء البشر يكرهون بعضهم بعضا، بل يتقاتلون فيما بينهم، ويكاد لا يتفقون على حل أي مشكلة بينهم حتى ولو كانت صغيرة، حينها تبادر لذهني لو أن السياسيين من البشر عقدوا اجتماعاتهم في الطائرات في الجو، ربما لسهل أكثر في الاتفاق بينهم لحل مشاكلهم السياسية على الأرض.

برودة السودان

كل شيء في السودان كان يشير للحر، إلا الروح فكنت أحس ببرودتها، الروح في المطار، وفي الفندق، والشارع، والسيارات، والمحال، والأرصفة، في كل هذا ولم يمض بعد على وصولي للخرطوم أربع وعشرون ساعة .

أردت أن أهرب للحظات إلى مكان اشعر فيه بحرارة في الروح، كنت احتاج أن أسبح في عالم الشعور عسى ولعل أحدث سخونة في روحي التي طالما اشعر بحرارتها حتى في شتاء كوردستان القارص، فكرت في النيل حيث اقترن اسمه باسم السودان، ففي الخرطوم ليس نيل واحد بل نيلان، أكبر نهر في المنطقة، وأطول نهر في العالم. أردت أن أهرب إليه لأسرق منه شعلة من نار أوقدها في روحي التي تشعر بالبرد .

(ئاگرێ سار وفه مری چاڤ مه لی یه گەش ببیت)

تلك الأغنية كان يغنيها الشباب الكورد كلما كانوا يشعرون بأن الثورة الكوردية قد أخمدت، أو تكاد تخمد، فكانوا يغنونها ليوقدوا شعلتها في النفوس، وليلغوا البرودة من الروح والشعور.

فالكورد لم يملوا من الثورة رغم أن الثورات كانت تجلب لهم مأساة بعد أخرى، كان يقول واحد منهم سأذهب لذلك الجبل البعيد لألهب النار هناك، فالنار رافقت الكورد في الثورة، وبرد الجبال، والشتاء، عندما كان يقال للكورد لا أصدقاء إلا الجبال، كانت النار جزءا من تلك الجبال، ذهبت للنيل قلت عسى ولعل أشعل نارا في روحي، اكسب النار من الماء، نار الروح والشعور، تشعرني بسخونة تلغي ما أصبت به من برد هنا في الخرطوم، مثل ذلك الشاب الكوردي الذي كان يهرب للجبل ليلهب هناك نارا لا لتحرق شيئا بل لتنير الطريق.

ضفاف النيل وسط الخرطوم رأيتها متروكة، والنهر يسير بهدوء أمواجه الحزينة وسط العاصمة،لم أر ذلك الجمال الذي يحدثه نهر يسير وسط مدينة في ليل، لم اعرف من ولد في النيل حزنه؟ قلت :"كم يفقد المسؤولون هنا الشعور بالجمال في الخرطوم وهم لا يحسون بجمال النيل، فلا يهتمون به، وهو يسير وسط عاصمتهم، فيتركونه حزينا!" تذكرت كيف تفكر مدن بشق انهر اصطناعية لتسير قرب مدنهم، لأن ليس في مدنهم نهر أو ماء.

عرفت أن هناك فكرة يتحدث عنها البعض في اربيل بان في الخطة صناعة نهر يحيط بالمدينة كما يحيط بها شارع الأربعين، والستين، والمائة وقريبا المائة والعشرين، قلت من يكون ذلك

الإنسان المسؤول في اربيل صاحب هذه الفكرة؟ ومن سيساعده في التنفيذ؟ وهل يمكن للفكرة أن تتحقق؟ إذا تحقق يكون المسؤول قد امتلك الإحساس بالجمال، وصنعه لدى المواطن، وبالتالي الشعور بالمسئوولية، فكم سيجذب ذلك النهر المواطن لمدينته؟

متى يمكن أن نصنع الشعور بالمسئوولية عند المواطن، ومتى يمكن أن نجعل من المواطن يشعر بالجمال؟ عندما نكون من صناع الجمال، والجمال جزء من الروح، والروح تصنع المسؤولية لدى المواطن، وعندها يكون المواطن أولا وقبل غيره عاملا لصنع الجمال، وصنع المسؤولية لديه ولدى محيطه، وهكذا يمكننا أن نصع مجتمعا جميلا يشعر بالجمال ويتذوقه كما المجتمعات في البلدان التي تمتلك الحس الجمالي (إن الله جميل يحب الجمال).

أعرف عن المواطن السوداني قبل زيارتي للسودان، التقيت به كثيرا، في خارج السودان، في دول عربية أخرى، عرفته مثقفا، ذكيا، صانعا للحياة، مبدعا في مجاله، وصادفني في رحلتي من اسطنبول إلى السودان مواطن سوداني بالمقعد المجاور لي، يحمل الدكتوراه قادما من أوروبا، وهو حزين لأنه متوجه إلى السودان، فتحدثت معه وسألته ماذا يفعل؟ قال أبحث عن فرصة عمل في أوروبا، وهل حصلت عليها؟ قال بحزن مؤثر ليس بعد، قلت وفي

السودان تلك البلاد الواسعة الشاسعة فيها كل شيء، ألا تجد فرصة عمل؟ فلم يرد علي إلا ببث نظرات الحسرة والحزن، عرفت كم تظلم البلاد مواطنيها، عرفت بالنار التي توقد روح السوداني وهو يعمل خارج بلاده، من أين مصدر تلك النار؟ ولماذا لم أجد تلك النار وهي توقد في روح المواطن في الخرطوم..؟

إذا عرف المسؤولون كيف يوقدون نار الحياة، في روح المواطن، فيجعلونه نارا تلهب ثورة في الصناعة والجمال، حينها يمكن أن يصنع المسؤولون الأجيال، ويصنعون الحياة، ويصنعون دولة حتى لو لم تكن لهم دولة، كما فعلت إسرائيل، فإسرائيل صنعت لها دولة دون أن تكون لها دولة، لم تصنعها كما يظن البعض بمجرد احتلال ارض وممارسة الظلم والطغيان، ولست محبا لإسرائيل، ولا مدافعا عنها، لكنها صنعت لها دولة تستعصي على رياح المعاداة من محيطها، لأنها طورت من بنيتها التحتية، وصنعت على تلك البنية مواطنا يشعر بالمسؤولية، وطورت من الشعور بالمسؤولية، وطورت من معيشة ذلك المواطن، وجعلت منه يحب بلده فيدافع عنه، وحاربت الفساد، ولم يجعل من شخص أو قوة تحكم البلاد والعباد لأبد الآبدين، وتركيا تفعل ذلك الآن ولو متأخرا، هؤلاء سيحمون أنظمتهم من ذلك الداء الذي ينخر بالأنظمة العربية الآن، أو بالأحرى بالثورة

الشعبية فعندما لا تستطيع السلطات إحداث ثورة صناعية، وثورة الشعور بالمسؤولية وثورة الشعور بجمال الروح عند المواطن وهو على أرضه، فلابد للثورة الشعبية أن تلتهب، كما هي ملتهبة الآن في بعض الدول العربية، والسودان لا أراها بعيدة عن رياح تلكم الثورات.

كي لا نذهب بعيدا عن السودان سألت زميلي الكوردي الذي يدرس في الخرطوم والذي كان يرافقني في جولتي إلى النيل، ربما نحن في منطقة نائية من الخرطوم، ولا يأتي إلى هنا أحد، أريد أن تأخذني إلى مركز المدينة لأشعر بالجمال وأشعر بالحركة، وأهرب من برود الروح هنا، فضحك وقال نحن نسير الآن في الشارع الذي يمر بالقصر الرئاسي وهنا أجمل منطقة في السودان نحن في المركز! فتعجبت فنظرت للأرصفة كانت لا تزال ترابية، والشارع المبلط تغطيه طبقات من تراب، وبقايا أشياء مرمية هنا وهناك، وكأن عقودا من الزمان مرت على الشارع دون تنظيف، استغربت ولم أتمكن من معرفة السبب، فطلبت من زميلي أن نرجع، وفي طريق الرجوع تحدث لي عن مشاعره في الخرطوم منذ سنتين كان يشعر بالأمر كما أشعر به في لحظاتي.

البداية هنا في السودان

تصريح عمل يسمح بموجبه أن أعمل في الجنوب، من السلطات السودانية في الخرطوم، تطلب مراجعات دوائر ومؤسسات لثلاثة أيام، رغم أن ذلك التصريح لم يكن معمولا به في الجنوب أبدا، فالجنوب لا يقبل بتصريحات الشمال، قضاء ثلاثة أيام في الخرطوم انتظارا لهذا التصريح ولد في شعورا جديدا وهو انعدام الشعور بالوقت هنا في الخرطوم، ومن لا يشعر بالوقت لا يشعر بالمسؤولية، بل لا يشعر بالحياة، فالوقت ليس مجرد سيف إذا لم تقطعه قطعك، بل الوقت هو الحياة نفسها إذا فاتك الوقت فاتتك الحياة، إذا لم نشعر بقيمة الدقيقة والساعة، سيفوتنا اليوم، وإذا لم نشعر بقيمة اليوم، سيفوتنا الشهر، وهكذا السنة والعقد والقرن، فنحن مجرد أيام، وأشهر وأعوام، والبشرية مجرد قرون، وجاء في الأثر الإسلامي: «يا ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يومك ذهب بعضك» وجاء في الأثر أيضا: «ما من يوم ينشق فجره على ابن آدم إلا ويقول يا

ابن آدم أنا يوم جديد وعلى عملك لشهيد فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة» وقال تحسين طه المغني الكوردي الراحل في أغنية شهيرة: «**گاڤا دبوريت سەعە تا دبوريت گەر ئەڤرو چو نا ئيتە ڤە نە كە سوباهى نە ئيتن ئاخ ژى دلو ئەم نە ئەڤە**».

فإذا لم يكن أمامنا وقت، علينا أن نصنع الوقت، إذا أردنا أن نصنع الحياة فالوقت هو الحياة.

التجربة الطفلة

من الجو كان جنوب السودان، جنة الله في أرضه، خضرة تحيطها خضرة، جبال حولها سهول، تلال تلامسها تلال، الشمس كانت تحاول أن تسرق أشعتها من محاولة اختطاف الغيوم لها، لتقبل خد ذلك الجمال، كما تقبل الأم خد طفلها، كانت تصل إلى بعض البقع، وتترك بقعا أخرى لاحتلال الغيوم، مستنقعات مائية كثيرة هنا وهناك، تبدو واضحة من العلو الذي كنا فيه، كلما تقترب الطائرة من مهبطها، كلما الأرض من تحتنا تكبر، وتكبر معها صفائح معدنية، وأكواخ، ومساكن من أعشاب وأشجار كانت هي (الفلل والشقق والعمارات) التي يتعود على رؤيتها الزائر لعاصمة ما، إلا أن جوبا عاصمة جنوب السودان ليست كما هي العواصم في بقية أنحاء أرض الله.

هبطت الطائرة، صفق الناس، اختلطت الأصوات التي لا نكاد نفهمها، وتهيأ الجميع للنزول، لامست الأقدام أرض جوبا، شمت الأنوف النسيم، الذي سرق رطوبة الأشجار والخضرة

التي بللتها الأمطار، فهي لا تكاد تنشف حتى تلامسها الأمطار من جديد، إنها الأمطار الاستوائية التي لا تقف ساعة حتى تمطر أخرى.

ننتظر استلام أمتعتنا التي تجلبها عربة تراكتور من الطائرة، وصلت الأمتعة ورميت رميا في غرفة استلام الأمتعة، كما ترمى الزبالة في مكانها، وعلى كل مسافر أن يبحث بين ما رمي في الغرفة عن أمتعته، من بين ما تبعثر جمعنا ما لنا، وخرجنا من المطار.

جوبا تشبه مخيما للنازحين، تشبه من ترك موطنه فسكن موطنا مؤقتا حتى يعود لموطنه، تشبه من لم يطب له المقام في مكان وينتظر العودة للموطن بسلام، تذكرت مخيم (جلي) على الحدود التركية، حيث كنا هناك في الهجرة المليونية، تذكرت المخيم لكن الفرق هنا في الوجوه، والفرق أيضا أننا في جلي كنا نازحين لكن هنا لا نزوح فجوبا هي عاصمة يحكم أهلها أنفسهم بسلام وأمان منذ خمس سنوات، وخصص لهم نصف واردات السودان من النفط، وتغزوها رؤوس أموال التجار من المنطقة، وهي تنطلق نحو مرحلة جديدة، هكذا نقرأ عن جوبا لكن لم نكن نرى على ارض الواقع أثرا يدل على ذلك.

الحديث الذي يسيطر على كل شيء هو الاستفتاء والانفصال من السودان، يتحدث به الطفل والكبير، المرأة والرجل، المثقف والأمي، الكل يتطلع لمرحلة جديدة، كما كنا نحن الكورد نتطلع إلى مرحلة ما بعد صدام حسين بعد الهجرة المليونية، كنا نتطلع لانتخابات وتشكيل برلمان وحكومة، الناس وكأنهم كانوا سيبدؤون الحياة من جديد، وكأنهم سيولدون في تلك اللحظة، والتاريخ الحزين ستكون له نهاية في تلك البداية من قاموسنا نحن الكورد في إقليم كوردستان، لم يكن هناك حدود لتطلعات المواطنين في ذلك الوقت، هي كذلك الآن في جنوب السودان، لكننا كنا نتطلع لإدارة ذاتية خارج سيطرة صدام حسين، أما جنوب السودان فيتطلع المواطنون للانفصال، ولتشكيل دولة، كنا نتطلع إلى ما نريد بعيدا عن موافقة نظام صدام، بل كان النظام سيفا يهددنا، وينتظر الفرصة للانقضاض على التجربة، أما جنوب السودان فيتطلع إلى الاستفتاء وتقرير المصير وتشكيل الدولة بموافقة النظام في الخرطوم، كنا نتطلع لإدارة ذاتية في بعض أجزاء من إقليم كوردستان وسط تخوفات إقليمية من تجربتنا، بل تهديدات منها على تجربتنا، أما جنوب السودان فيتطلع إلى ذلك وسط ارتياح بل دعم إقليمي ودولي.

خارج ذلك التطلع والتفاؤل بالمستقبل على تلك الوجوه، والسعادة المخفية التي تظهر بين الحين والآخر على البشرة السوداء لمواطن الجنوب، لم نر في الأرض ما يشجع على أن هؤلاء يتطلعون لذلك، عمليا لم نر ما فعله هؤلاء من أجل التهيؤ لهذا التطلع، ولتحقيق ذلك الطموح، فلا يزال المواطن هنا يعيش تحت الكوخ، لا بل المواطن هنا لم يعش بعد بين جدران وسقف مبني، لا تزال الشوارع ترابية، والتراب أرسلت آثارها إلى كل مكان على الأشجار والسيارات، على المحال والأكواخ وملابس المواطنين، بل حتى ترى آثار تلك التراب على وجوه بعضهم، رغم أن مسؤولي جنوب السودان يحكمون منطقتهم منذ خمس سنوات.

في أول سير لنا في شوارع جوبا شعرنا أن العمل شيء، والأقوال والطموح والتطلع شيء آخر، كم يكون جميلا عندما يكون تنفيذ الطموح والتطلعات واقعيا وعمليا قبل أن تتحول إلى أقوال وأماني، عمليا لم نكن نشعر ونحن نسير في الجنوب أن المنطقة هنا تتطلع لمستقبل جديد، تتطلع للانفصال مثلا، أو تتطلع لدولة جديدة، خمس سنوات ولا جديد.

وصلنا لنبدأ العمل كي لا نضيع لحظة من تواجدنا هنا في الجنوب، كنا نحتاج لعمل جولة ميدانية، نجلس مع بعض الناس، بعض الصحفيين، بعض التجار، بعض المسؤولين، بعض المثقفين،

لتكون لقاءاتنا معهم المفتاح الذي نفتح به باب عملنا، وكان يومنا الأول كذلك.

الجزيرة محظوظة لأنها تملك في كل منطقة تريد تغطيتها شخصا عارفا بالمنطقة، وله إلمام بالقوى والمسؤولين والناس والتجار، ومتحمسا لذلك، وكان ذلك الشخص في الجنوب هو عادل فارس ذلك الصحفي الذي تفتح أمامه الأبواب في الجنوب، والذي رتب لنا كل ما احتجنا إليه في تغطيتنا، كان اتفق أن يرافقنا صحفي حسب الاتفاق المسبق.

في الوقت الذي كنا نحاول أن لا نضيع لحظة في البدء بالعمل، خسرنا ساعات لان ذلك الصحفي لم يأت ولم يرد على اتصالاتنا، ومخالفة الوعد في جنوب السودان كان أبرز سمة كنا نشعر به في تعاملاتنا هناك. وكل موعد كنا نحدده كان صاحب الموعد يتأخر لساعات عن موعده، قيل لنا تكاد لا ترى الشعور بالوقت في السودان، وقد عشنا ذلك ونحن هناك في الجنوب أيضا.

فكم سيخسر المواطنون إذا لم يف المسؤولون في الجنوب بوعودهم لمواطنيهم، وكم ستكون الخسارة كبيرة إذا كانت تلك الدولة التي يطمحون لها، مجرد اسم بلا مسمى، وكم من المهم أن يبحث المسؤولون في جنوب السودان عن مسمى الدولة، وينهون الحديث عن ضرورة الانفصال، وضرورة الدولة، وينهون

تباكيهم على مآسي التاريخ، ومآسي الحرب، فكل ذلك قد ولى وهم أمام يومهم وغدهم.

وضعنا في إقليم كوردستان على الأرض أفضل بكثير من جنوب السودان، رغم أن وضعهم على خارطة الاهتمام الدولي أفضل، لكننا نسبقهم بخمسة عشر عاما فعمر تجربتنا عشرون عاما وعمر تجربة جنوب السودان خمسة أعوام، لكنني لا أرى أهمية كبيرة لهذه الفروق بين التجربتين، فالأهمية تكمن في الإرادة الموجودة لدى مسؤولي الطرفين في إثبات النجاح، والنجاح لا يأتي بالأقوال والتمنيات والشعارات والتباكي على الماضي بقدر ما يأتي بصناعة اليوم والغد، صناعة اليوم تتجسد في أن تظهر على الأرض علامات النجاح، وبنية تحتية تتطور وتعكس شيئا جديدا لم يكن موجودا في السابق، ويتطور في الغد إلى شيء لم يكن موجودا اليوم، وهكذا.

على جنوب السودان أن يتجاوز عقدة التجربة الطفل، (التجربة الفتية) كما على كوردستان أن تتجاوز تلك العقدة التي لازمتها منذ عشرين سنة فالطفل بعد عشرين سنة يصبح شابا ناضجا، بل في عنفوان القوة، وإذا كان طفلنا قد كبر فلا يمكن أن يوقفه أحد عن التطلع لغد جميل، وإذا أصبح طفلنا رجلا ناضجا يعني ذلك نرى ملامح ذلك الرجل الناضج الذي سيتعامل معه الآخرون.

التعليم والمدارس
استقبال الرئيس

بعد استراحة أول يوم لنا في جوبا، كنا متلهفين للبدء بالتصوير لأول تقرير، وكان ذلك اليوم هو الجمعة، وليست الجمعة عطلة في جنوب السودان منذ خمس سنوات، عطلتهم هي يوما السبت والأحد تقليدا للغرب، لكن كانت تلك الجمعة التي أردنا بها أن نبدأ أشبه بالعطلة والاحتفال، فالكل هنا في عاصمة جنوب السودان متلهف لعودة قائدهم سلفاكير من اجتماعات مجلس الأمن الدولي في نيويورك، وهذا الحدث اعتبر لديهم حدثا تاريخيا، يحدث لأول مرة حيث ألقى هناك سلفاكير كلمة دويلته التي على وشك أن تصبح دولة، والجميع متلهف لاستقباله بالرقصات والأغاني والمسيرات، ذكرني المشهد بعودة زعماء الكورد من زيارات لهم من الولايات المتحدة الأمريكية بين الحين والآخر، وبخاصة في تسعينيات القرن الماضي، رغم أن الاختلاف كان جليا بين عودة زعمائنا في تلك الفترات وعودة

سلفاكير الآن، فزعماؤنا لم يكونوا عائدين بعد كلمات لهم في مجلس الأمن الدولي مثل سلفاكير، وعند عودتهم لم يكونوا يستقبلون كما يستقبل سلفاكير، فهو يستقبل وشعب الجنوب مجمع على الاحتفال باستقباله، أما زعماؤنا فكان يحتفل بمجيئه في مكان بكوردستان دون الآخر، بل يكاد لا يشعر بعض المناطق بعودة زعيم كوردي، كما يشعر به بعض المناطق الأخرى، نتيجة الصراعات الحزبية والحروب الداخلية بين الأحزاب الكبيرة في كوردستان، جعلت من زعمائنا زعيما لجزء دون الجزء الآخر. لم يصب جنوب السودان بذلك الداء بعد، لكن الخشية قائمة بعد الانفصال والصراع على كرسي الحكم، وكنا نلمس ونقرأ هنا وهناك بوادر لذلك.

لم يكن بإمكاننا البدء بمشروعنا، فلا مسؤول ولا سياسي جاهز للحديث اليوم، ولا دائرة حكومية مستعدة لتصويرها لنستفيد من ذلك لأحد تقاريرنا، كانت فرصتنا أن نتوجه في السابعة صباحا ونصور الشوارع، ونترقب توجه التلاميذ للمدرسة، وإمكانية الدوام على الأقل لدرس أو درسين، لأن الدوام سيعطل في المدارس أيضا، فهي ستتوجه لاستقبال سلفاكير، وعسى أن نستغل الدرسين الأولين للتصوير والمقابلات لتقريرنا عن المدارس وتغيير المناهج من اللغة العربية إلى اللغة الانكليزية فذلك ضمن أجندة تقاريرنا المعدة سلفا.

الطبيعة أجمل

الأجواء الصباحية في شوارع جوبا كانت رائعة، نسيم خفيف يهب برياحه بين الأشجار التي تكاد تخفي شوارع جوبا بينها، النسيم كان يأخذ ريح التراب الرطبة من كل مكان، مختلطة بريح أوراق الأشجار والنباتات التي تسلقت على تلك الأشجار مع ريح الفواكه المختلفة التي سقطت تحت أشجارها وتعفن بعضها، أو ريح الأكواخ وما يحيط بها، فأينما تولي وجهك في جوبا فسترى إما أشجارا أو نباتات مختلفة، صبغت المكان بالخضراء، أو ترى أمامك ترابا تسير عليها بعد أن عدلتها آليات التعديل، لتسير عليها السيارات والمشاة فهي شوارع جوبا، النسيم يهب وسط أشعة شمس جعلت من صباح جوبا غير ممطر في تلك الساعات، ذكرني المنظر بمنظر (كلي دهوك) في سبعينيات القرن الماضي، عندما كنا أطفالا ونركض بين بساتين (الكلي) وطرقها الترابية والنهر الذي يقطع الجبل الذي يحتضن دهوك من الشمال، ليسير بمائه وسط المدينة. صباح جوبا يشبه

تلك الصباحيات القديمة من كلي دهوك، حيث نسيم الرياح الهادئ الناقل لكل ما كان جميلا، من ريح تراب وأشجار ونباتات رطبة.

مجتمع أمني

بدأنا بنصب الكاميرا، لتلتقط العدسة أول لقطاتها في جوبا، لا بأس من هذه البداية فكل شيء هو جديد بالنسبة لنا، السيارة تسير نصورها، المواطنون يسيرون نصورهم، نصور الأكواخ وما بينها من أبنية إما هي حكومية أو مراكز كنسية تقوم بالتبشير هناك، وتلك المراكز هي الأنشط في الجنوب منذ أكثر من مائة عام.

العيون تلتفت إلينا من هنا وهناك، اقتربت منا دراجة نارية وسأل راكبها مرافقنا عنا من نحن؟ وماذا نفعل هناك؟، غادرنا بعد نظرات ريبة لم تكن مريحة لنا، اقترب صاحب دراجة هوائية سأل مرافقنا السؤال نفسه وغادر، تقدم آخر وسأل وهكذا بين كل لحظة وأخرى يسأل مار ويسأل عنا بعد أن ينظر إلينا نظرات ملؤها الريبة والشك، وكان مرافقنا من جنوب السودان يرد عليه ويمشيهم ويحمينا ويحمي عملنا من أولئك،

هكذا المجتمع في الجنوب وكأنه مجتمع أمني مغلق يخرج رجل أمن من الدكان والكوخ ومن الشارع ومن على دراجة هوائية أو نارية، كل سائر أسود في شوارع جوبا تخيل لنا أنه رجل أمن! وكل مواطن في الجنوب يشعر بأنه رجل أمن أمام أجنبي ليس من مواطني الجنوب وفي الوقت نفسه ليس هو بمواطن غربي أبيض، صاحب شعر أشقر، بدا لنا من تلك البداية أن القيام بالمهمة في الجنوب وبخاصة في التصوير سيجابه ويواجه ببعض الصعوبات والعوائق التي قد تؤخرنا عن الموعد المحدد لإنهاء مهمتنا في السودان، والذي كان عشرة أيام من دخولنا السودان.

التعليم يحاول تجاوز العوائق

الساعة هي الثامنة، والتلاميذ يتوجهون فوجا بعد فوج لمدرسة (جوبا وَن) الابتدائية وسط جوبا، نصورهم من بعيد، وهم يقتربون، ومن ثم يدخلون، تلميذة عرجاء تسحب وراءها قدمها المعاق، حقيبة كبيرة تثقل ظهرها، رجلاها تحملان بقية أطيان سببتها أمطار متقطعة نزلت يوم أمس وصباح اليوم، وبعد كل خطوتين، تمسح حذاءها من الأطيان، لتسير خطوتين بعدها، وهكذا، كلما ترفع قدمها السليم تميل على قدمها المعاق، طلبت من المصور أن يأخذ لقطات بعيدة وأخرى متوسطة على التلميذة وبعدها قريبة على رجليها، لاحتفظ بتعليق لي على تلك اللقطات أثناء تحرير تقريري لأقول: "التعليم يحاول تجاوز العوائق في جوبا" لأنني قرأت عن عوائق التعليم في جنوب السودان، فإحصائيات اليونيسيف تشير إلى أكبر نسبة أمية بين الأطفال في العالم هي في جنوب السودان، والعوائق تشير إلى أن أكبر نسبة من البنات اللواتي لا يستطعن

الالتحاق بالتعليم هي أيضا في جنوب السودان، وقلة المدارس أحد أكبر العوائق، ناهيك عن المعلمين.

السياسة تعيق التعليم

دخلنا المدرسة لنصور من الداخل بعد موافقة الناظرة التي بدت غير مرتاحة من الوضع الدراسي في جوبا، حيث قالت لنا: «لم نستطع تكملة المنهاج الدراسي لهذا العام، يقولون بأنهم سيمدون اشهرا مدة الدراسة هذا العام لكن مع ذلك لا يمكننا حتى لو مدت اشهرا من تكملة المنهاج لأننا سندخل بذلك عاما دراسياً جديداً» استفسرت من السبب قالت: «كانت قبل فترة انتخابات الرئاسة ونحن أمام الاستفتاء وكل ذلك يقطع أسابيع من الدراسة، وكل يوم لدينا مناسبات، اليوم سترسل المدرسة لاستقبال الرئيس» كانت تتكلم الناظرة ويظهر على محياها الألم لكونها لا تستطيع تكملة منهاجها الدراسي مع تلامذتها، دخلت صفا كان المعلم يشرح اللغة الانكليزية التي بدأت بالتدريج تحل محل العربية، بعد الاستراحة التقيت بتلميذة تحدثت عن مشاكلها قالت: «ليست لدينا كهرباء، كيف بدون كهرباء نحضر دروسنا».

نشيد على وشك الزوال

عملت الناظرة حسب طلبنا اصطفافا لنصور التلامذة مجتمعين وسط الساحة الترابية للمدرسة، وكان علم جنوب السودان يرفرف وسطها، تقدمت تلميذة وسط الجميع وتلت تراتيل الكنيسة وبعدها جاءت أخرى قارئة الفاتحة والجميع يشترك، تلامذة ومعلمون، وبعدها انشدوا نشيد: «أنا سوداني» ويصفقون ويرقصون معها بأطوالهم الرشيقة التي كانت تهتز مع اللحن، لترقص فذلك النشيد على وشك أن يزول من قاموس الجنوب ليحل محله نشيد جديد ليصبح السلام الوطني للدولة المرتقبة.

حل مشاكل التعليم
قبل تغيير المناهج واللغة

في مدرسة (جوبا وَن) التي بدأنا منها التصوير في عملنا بجنوب السودان، تحدثت الناظرة عن مشكلات التدريس، فهم متأخرون وسوف لا ينهون منهاجهم الدراسي، بسبب العطل والمناسبات، والقطع الذي يحصل في الدراسة بسبب الانتخابات مرة، والاستفتاء مرة أخرى، وهي كانت مع الرأي القائل بأن الوقت لم يحن بعد للعمل على تغيير المناهج الدراسية، وكذلك التغيير بلغة الدراسة من العربية إلى الإنكليزية، لان ذلك سيلقي على كاهلهم واجبات إضافية هم في غنى عنها، وسيربكون أكثر الواقع التعليمي المربك أصلا في جنوب السودان، وهي كانت ترى أن مشكلات أخرى موجودة يجب التفكير بحلها قبل التفكير بالتغيير في المناهج وفي اللغة، من تلك المشكلات قلة المدارس، وقلة المعلمين، والازدحام في الصفوف الدراسية، والافتقار إلى الوسائل التعليمية والمختبرات، وانعدام الكهرباء في البيوت الذي يؤثر على تحضير التلامذة لدروسهم، وانعدام وسائل النقل،

فالتلاميذ يقطعون مسافات طويلة للوصول إلى مدارسهم، واستغلال المدارس للمناسبات السياسية من الخروج للمسيرات بين فترة وأخرى.

السياسيون لهم رأي آخر

ما سبق ذكره كان رأي ناظرة، وكان يشترك معها الكثيرون من العاملين في سلك التعليم، لكن كان علينا أن نبحث عمن يغير المناهج، ولغة التعليم ليقول رأيه، فكان لابد من اللقاء بوزير التربية (مايكل ميللي حسين) الذي دافع عن موقف حكومة الجنوب والحركة الشعبية من تغيير المناهج الدراسية، ولغة الدراسة، ووصف العملية بالضرورية، وأنها تمت بنجاح، وعن أنهم استفادوا من ذلك من دول الجوار كأوغندا وكينيا، في جلب المناهج وجلب الكادر التدريسي من هناك، وأنهم قد غيروا في خمس مراحل دراسية منذ خمس سنوات وسيستمرون لينهون العملية بعد سنوات ليصنعوا بذلك جيلا جديدا في جنوب السودان على مناهج دول الجوار، وبعيدا عن اللغة العربية، وهو لم يكترث بما قالته لنا الناظرة من وجود عوائق في طريق التعليم بالجنوب، هكذا رأينا السياسيين في جنوب السودان يتسارعون في إيجاد مظاهر الانفصال عن السودان، ويسبقون الموعد المحدد للاستفتاء حول مصير الجنوب، حيث كل شيء في الجنوب كان يوحي بانفصاله عن السودان.

بين تجربتين

فكرت بما حدث عندنا في كوردستان العراق بعد عام ألف وتسعمائة وواحد وتسعين، فقد خطونا في إقليم كوردستان خطوات مماثلة، وانقسم الناس إلى فريقين مختلفين في الرأي والتوجه حول الموضوع ذاته، منهم من مع التغيير ومنهم من مع حل المشكلات التعليمية قبل البدء بالتغيير، السياسيون مع التغيير والأكاديميون ينفذون، التغيير الذي حصل في كوردستان لم يكن تغييرا إلى الانكليزية بل إلى لغتنا الأم، اللغة الكوردية، وكان الاندفاع قويا للتعلم بها، لكن لم تخل العملية من المشكلات، ومن التأثير السلبي في المستوى الدراسي لا يزال تعاني منها مدارسنا في كوردستان، لأنه لم يرافق التغيير الاهتمام نفسه بعملية التعليم والتربية، والتطوير بوسائل التعليم، وبالمختبرات، وبأساليب التدريس، بل لم يرافق ذلك حتى التشجيع على التعليم ودعم المعلمين ودعم المدارس، وحتى يكون لنا جيل جيد في المستقبل فمن المهم أن يكون لنا قبل التغيير في المناهج وفي اللغة أن يكون هناك تغيير في أساليب ووسائل التعليم، وأظن أن التطوير في التعليم يبدأ من جعل

المدرسة أحب مكان للتلميذ والطالب، وكلما رجع الطالب من المدرسة يحن اشتياقا إليها ثانية، ولا نجعل من الطالب يفكر في العطل والمناسبات حتى ينقطع عن المدرسة، ويتطلب التطوير أيضا آلية الفرز بين إمكانيات التلاميذ وأن يتم توجيه التلاميذ وفق مواهبهم، ووفق رغباتهم.

لسنا بصدد نقد موقف السياسيين في جنوب السودان أو كوردستان العراق من التغيير في المناهج الدراسية ولغة الدراسة، ولكن اتخاذ قرار بهذا الصدد يتطلب إشراك الخبراء والأكاديميين من وسط السلك التدريسي والذين هم من يعيشون المشكلة ويعرفون تفاصيلها، والتغيير بالمناهج ولغة الدراسة لا يكون قرارا لحظيا بقدر أنه مشروع كبير يتطلب خطة تدريجية وبعيدة المدى، فليس هو عملية هدم شيء وبناء آخر، بل هو عملية بناء شيء جديد ليحل بالتدريج محل القديم، ومن ثم يجعل من القديم إرثا معرفيا، يتم تصفيته من سلبياته وإبقاء ايجابياته وترجمتها إلى اللغة الجديدة، باختصار العملية هي ليست عملية رد فعل لحالة معينة بل هي عملية فعل شيء جديد في مصلحة القضية.

بعد أن انهينا التصوير في مدرسة (جوبا وَن) خرجنا للشارع الرئيسي في جوبا، فإذا المدارس قد خرجت للتوجه لاستقبال رئيس حكومة جنوب السودان سلفاكير العائد من إلقاء كلمة له

في مجلس الأمن، التلاميذ قد اصطفوا في صفوف طويلة، بناتا وبنين، أطفالا وفتيانا، وهم يرفعون اللافتات والشعارات، شوارع جوبا تفرغت لسير التلاميذ في صفوف طويلة، وهم يغنون ويرفعون الشعارات وصور الزعيم العائد من الأمم المتحدة، هذا المشهد كان الذي تشكو منه الناظرة التي كانت تجعله سببا للتأخر في إنهاء المنهاج الدراسي لعامهم، كانت تسير المدارس لاستقبال الزعيم، هذه الظاهرة تنتشر في عالمنا، وهي رغم أنها مظاهر إعلامية يمكن أن يستفيد منها السياسيون، لكن في الوقت نفسه تضر كما قالت الناظرة بالمستوى التدريسي في المدارس كما تؤثر غيرها من الممارسات السياسية في الأوساط التعليمية.

بعيدا عن التشبث بالقشرة

من المهم أن يستفيد المسؤولون في تجربة كتجربة جنوب السودان، أو كتجربة كوردستان في العراق، من الفرص التاريخية التي تتوفر لهم، ولا يمكن إنكار أهمية المظاهر كالبحث عن العلم والنشيد الوطني والتغيير بالمناهج الدراسية واللغة، والاحتفالات بالحصول على بعض الحقوق والمطالبة بما تبقى منها ، لكن أن تثبت نفسك عمليا في أرض الواقع أهم من كل ذلك، أن تبني الدولة الحقيقية تدريجيا لتكون دولة واقعا ملموسا بعناصرها ومتطلباتها، أهم من المطالبة بها واستفزاز الآخرين المعارضين المخالفين ضدك، وان تستغل ما بين يديك من إمكانيات في مصلحة هدفك الأعلى وهو تحقيق دولتك، أهم من الدعاية والإعلام والنداءات والمطالبات، وان تكون لنا دولة ناجحة في هدوء أفضل من أن تكون لنا احتفالات ناجحة بدولة فاشلة، وأفضل من أن تكون لنا مظاهر ودعاية بدلا من مضمون الدولة الناجحة.

تحقيق الأمنية الحلم

في كوردستان العراق، لو تم استغلال عشرين سنة من الحكم الذاتي وبعدها الفيدرالي، أولا بعيدا عن نظام صدام حسين وفي ضوء حماية دولية، ومن ثم بعد سقوط النظام وفي وسط ظروف أفضل مما مر به نظام ما بعد صدام حسين في بغداد، لاقتربنا من الدولة أكثر من مطالبتنا بأنها حق لنا وحلم نتمنى له التحقيق، لاقتربنا واقعيا، ولو كنا قد نجحنا في إيجاد نموذج حكم مثالي وإدارة مثالية في ضوء الإمكانيات المتوفرة لنا والموجودة وفي ضوء التأييد الشعبي العالمي، لكنا أقرب للأمنية الحلم من الآن، لو نجحنا إداريا وسياسيا بتفوق في المناطق التي تقع تحت سيطرتنا، لكان أسهل من أن تضم إلى كوردستان مناطق مسماة بالمتنازع عليها بيننا في كوردستان وبين بغداد، فنحن أحوج إلى مقولة: (أقم دولتك في صدرك تقم على أرضك) فالمتمني لدولة الحلم كالكورد مثلا أحوج أن يقيم في ذاته دولته في صدره لتكون في الحصيلة الدولة الحقيقية في الأرض.

ما قلناه ليس معناه قد ابتعدنا عن الأمنية، وليس معنى زوال الفرصة، بل الكورد في أفضل فرصة لهم الآن فلو نجحوا بتفوق أكثر مما مضى من نجاح، الآن ومستقبلا لكانوا أقرب لتحقيق الأمنية الحلم.

معالم السيادة

جرى الحديث كثيرا عن بحث جنوب السودان عن معالم سيادة خاصة به يسبق نتائج الاستفتاء، ويسبق الإعلان عن دولته، البحث عن تلك المعالم كاد يسيء إلى العلاقة بين حكومة الجنوب التي تقودها الحركة الشعبية برئاسة سلفاكير وحكومة المركز التي يقودها حزب الرئيس السوداني عمر البشير، وفي ضوء التوتر بين الجانبين كان الكثير من المراقبين يبدون خشيتهم من حصول قطيعة بل ربما إعادة الحرب، وانهيار اتفاقية السلام بين الطرفين والتي بموجبها اتفق الجانبان على استفتاء شعب جنوب السودان على مصيره سواء بدولة مستقلة أو البقاء مع السودان، وفي ضوء ذلك كان الجنوب عازما على أن يتجه نحو الانفصال بغض النظر عما سيقع وعما سيعيق، مستفيدا من الموقف الدولي من نظام البشير في الخرطوم، ومن الدعم الدولي لجنوب السودان، وكذلك دعم دول الجوار السوداني من الجنوب لانفصال الجنوب من السودان، فالجنوب كان مشغولا بالبحث عن النشيد الذي سيكون السلام الوطني

للدولة المرتقبة، وعن الترويج لعلم الحركة الشعبية ليكون علم دولة الجنوب ما بعد الانفصال، وكان الحديث يجري أيضا عن البحث عن اسم الدولة، ولغة الدولة، والعملة وما إلى ذلك.

السلام الوطني

شكلت لجنة من مجموعة مثقفين من الجنوب لاختيار السلام الوطني، ووضعت اللجنة شروطا للشعر الذي سيوضع له لحن ليكون السلام الوطني للدولة والشروط كانت: أن يكون الشعر من سبع مقاطع ويتحدث عن تاريخ، وأرض، ومعاناة، وتضحيات شعب جنوب السودان، وكذلك المستقبل فى عالمهم الجديد ومن ضمن الشروط أيضا أن يكون النشيد باللغة الإنجليزية وسهل الحفظ وذات لحن واحد وقصير، وتم اختيار شعر بعنوان (أرض كوش) بعد توجيه اللجنة رسائل الكترونية لكتاب وشعراء جنوب السودان حول العالم لنظم كلمات، ومن ثم اللحن ليكون النشيد سلاما وطنيا لدولة الجنوب.

عملية البحث عن هذا النشيد ولد جدلا في جنوب السودان بين الحركة الشعبية التي تحكم الجنوب وبين أحزاب معارضة في الجنوب، حيث طالبت تلك الأحزاب بإشراكها في عملية الاختيار وأن لا ينحصر اختيار النشيد بين أتباع ومؤيدي

الحركة الشعبية، هذا من جانب ومن جانب آخر كانت الاعتراضات كبيرة وكثيرة من الخرطوم بأن استباق الجنوب للبحث عن النشيد الوطني للدولة قبل الاستفتاء ومعرفة نتيجته هو عملية لفرض إرادة الحركة الشعبية وهو الانفصال على واقع جنوب السودان، إلا أن عملية البحث لم تبال بكل ذلك فأوجدت الشعر واللحن وحددت السلام الوطني، وسط صمت بعد إقراره، صمت من المعترضين سواء من خرطوم أو من المعارضة في الجنوب.

للعلم القصة نفسها

أصبح علم الحركة الشعبية، هو علم حكومة الجنوب منذ خمس سنوات، وهو علم الدولة القادمة دون أن تكون هناك لجنة تقرر ذلك، أو تبحث عن علم جديد، وسط الاعتراضات أيضا، وبخاصة من أطراف معارضة في الجنوب، لكن الجديد في العلم هو الترويج له، وصناعة أعداد كبيرة منه استعدادا للاستفتاء ومن ثم للإعلان عن الدولة، استعدادات سواء في خياطة العلم أو تطريزه، وكان الرواج على شراء العلم كبيرا، ومن أماكن الخياطة والتطريز بدأنا التصوير لننطلق منه للحديث عن علم أول دولة على وشك أن تتشكل في بداية القرن الواحد والعشرين، كما تشكلت دول جديدة في بداية القرن العشرين.

علم كوردستان من جنوب السودان

مواطن من دارفور، ملامحه كانت تختلف عن ملامح المواطن الجنوبي، لأننا بدأنا نفرق بين المواطن الجنوبي في السودان عن غيره من السود، أو السودانيين، وكما أن من آيات الله في دنيانا أن خلقنا شعوبا وقبائل لنتعارف، خلق السودانيين كذلك، اختلافات كثيرة وكبيرة في الشكل واللغة بل حتى في الثقافة تجدها في السودان، ولهذا الكثير من المراقبين يتوقعون تقسيمات شتى للسودان إذا لم تستطع الدولة استيعاب الخلافات والاختلافات في الشكل والثقافة والدين والمضمون، مثلما لم تستطع الدولة استيعاب الجنوب فانفصل، وانقسم السودان، كان ذلك المواطن الدارفوري صاحب محل للتطريز يجمل في علم جنوب السودان، ليبيعه لان الأسواق أصبحت رائجة في شراء علم جنوب السودان خاصة المطرز منه، فبدا لي التطريز جميلا جدا، وبدا لي التطريز فنا يجذب النفس، وهم كانوا يعملون العلم كاملا بالتطريز، ويلونونه بالتطريز، ويكتبون

الكلمات عليه بالتطريز، فأسرتني العملية فطلبت من الدارفوري محمد صاحب المحل أن يعمل لي علما مثله، قال تقصد علم جنوب السودان؟ قلت له لا اقصد علم كوردستان، وقال آه علم العراق؟، قلت لا علم كوردستان، فقال كيف هو علم كوردستان، فقلت له إنه مكون من ثلاثة ألوان، احمر وابيض واخضر، وشمس تشرق وسطه فيها واحد وعشرون شعاعا، واعمل لي أربع ورود مطرزة تحيط بالعلم ترمز لأقسام كوردستان الأربع، واكتب لي تحته باللغة الكوردية (كوردستان قلبي) فبحث الدارفوري في الانترنيت عن علم كوردستان فوجده، فقال عرفته، وطلب مني أكتب باللغة الكوردية (كوردستان قلبي) ليطرزه تحت العلم، فكتبته ليطرزه لي على العلم، ومهلني أسبوعا وجاء لي بالعلم ليكون لي ذكرى لتغطية استفتاء جنوب السودان عن تقرير مصيره لاحتفظ به من جنوب السودان كأغلى ذكرى لدي في مهمتي هناك.

الفرق بينهما

وجدت الفرق هنا أيضا بين جنوب السودان وبين كوردستان العراق، وجدت الفرق أن السلطة في جنوب السودان كانت تصبو لتنفيذ اتفاقيات سابقة حتى لو رفضت الأطراف المتفقة معها كالخرطوم، لتطبق ما تقرره دون أن يؤثر عليها لا اعتراضات الخرطوم ولا اعتراضات المعترضين من الجنوب، لكن في كوردستان العراق فقد مر على تنفيذ المادة مائة واربعين من الدستور العراقي سنون وسنون ولم تطبق وسط اعتراضات أطراف عراقية، ووسط تجاهل من الحكومة في بغداد، ووسط مراعاة من سلطات الإقليم للوضع العراقي، وربما وسط مطالبات أمريكية أيضا للكورد بعدم محاولة التطبيق من طرف واحد، على عكس جنوب السودان الذي يطبق ما يعتبره حقا من طرف واحد حتى ولو اعترضت الخرطوم أو اعترض المعترضون من الجنوب، لكن بتشجيع من دول الجوار وبتشجيع أمريكي.

زوال صدام أضر بالكورد

الاختلاف جلي بين كوردستان العراق، وجنوب السودان في أن النظام الحالي للسودان، برئاسة عمر البشير هو نظام مكروه دوليا، والولايات المتحدة وحلفاؤها على موقف سلبي من هذا النظام، والنظام يراعي الموقف الدولي منه فلا يمانع ما يقوم جنوبه وفق ما يريد حتى ولو كان الانفصال منه، أما في العراق فذلك النظام المكروه دوليا والذي كان الموقف منه سلبيا هو نظام صدام قد زال وحل محله نظام جديد، لم تظهر ملامحه بعد كي يظهر منه الموقف الدولي، ولهذا لا يحصل الكورد الآن في كوردستان العراق على دعم دولي لتحقيق مطالبهم في العراق على حساب النظام الحالي في بغداد، فأظن أن الكورد أصبح يدفع ضريبة ذلك، ضريبة أن الموقف الدولي حاليا من بغداد ليس سلبيا كما كان زمن صدام حسين فهل يا ترى أن زوال صدام حسين بتلك الطريقة لم يكن في مصلحة الكورد، ربما هناك مراقب يعتبر أن صدام حسين بعد غزو الكويت كان

مستعدا ليعطي للكورد ما يريد، أكثر من النظام الحالي في بغداد والذي يشكل الكورد نسبة ما يقارب الربع منه.

الطرق في جنوب السودان

أحد أهم التحديات التي ستواجه جنوب السودان هو البنية التحتية التي تكاد تكون صفرا، والطرق أهم مشكلة تبرز رأسها لمن يزور الجنوب، فهذه المنطقة لا تزال على ما خلق الله عليها من طبيعة لم تتدخل فيها بعد يد البشر، طبعا في مجال البناء والعمران، إلا أن تلك اليد تدخلت وبقوة في مجال الخراب، ولم يكن في جنوب السودان من عمران ليخرب، لكنها خربت في الأنفس لتقتل وتشرد في أطول حرب أهلية في العالم، توقفت بعد أن اتفق طرفا الصراع على تسريح بينهما بإحسان، ليتحرر مواطنو جنوب السودان على أرض لم تمتد إليها يد الإنسان لتعمرها بعد.

الزمن بطيء جدا

المجمعات السكنية في الجنوب ترتبط ببعضها بأرض منبسطة تمكنت بعض الآليات من تعديلها لتتحرك عليها السيارات بصعوبة بالغة، وكثيرا ما تغلق هذه الطرق لفترات نتيجة الأمطار التي تنزل بين الساعة والأخرى، لتجعل مائة كيلومتر مثلا بين جوبا وتوريت نقضيها بسبع ساعات بالسيارة.

هكذا الزمن يسير بطيئا جدا في الجنوب، هكذا تصبح الساعة هناك في جنوب السودان سبع ساعات مثلا! وأحيانا أكثر عندما تتوقف الشاحنات الكبيرة في حفر وسط الطريق فتعيقه تماما، وحينها يتوقف الزمن أمام السيارات وركابها وبضاعتها، التي بدأت يسابق بعضها بعضا من دول الجوار إلى جنوب السودان، حصل لنا ذلك عند العودة من توريت، ما كان أمامنا إلا أن ننزل من سيارتنا لنتفرج على إطاراتها وهي تدور في الطين حول نفسها دون أن تتقدم للأمام، قلت للسائق ألم تعرف بأن سيارتك لا يمكن لها أن تعبر هذا الطين، كيف

اقتحمته بهذه السرعة، ومن سيخرجها لك الآن، ومن سيوصلنا إلى جوبا ثانية، قلتها بشيء من العصبية، وكان من حقه أن يضحك لأرى أسنانه البيض تظهر بين سواد وجهه وحمرة لسانه ويقول: "وماذا عساي أن أفعل؟! ألا تريد العودة إلى جوبا" معه الحق فلا عودة لجوبا إلا باقتحام ذلك الطين وتلك الحفر والجداول المائية التي تقطع الطريق الترابي بين مكان وآخر.

شاحنات وسيارات توقفت في الطريق وعشرات السيارات من الجانبين تنتظر أن تعبر الطين نفسه، استفسرت من مرافقي هل هذه الحالة دائمة، أم هي طارئة حصلت لنا فقط؟ قال: هي حالة دائمة هنا، استغربت كيف المسؤولون في الجنوب لم يفكروا بالقضاء على هذه المشكلة، وتعديل الحفر في الطريق، ألم تعد خمس سنوات وهم يحكمون كافية لمعالجة مشكلة كهذه، في طريق مهم بين جوبا وبين معقل أول شرارة للحرب في الجنوب توريت، حيث الحدود الاوغندية ومنها تتدفق المئات من الشاحنات نحو جنوب السودان.

أقرب للجوار

عندما تكون المسافة بريا بين جوبا عاصمة جنوب السودان ودول الجوار السوداني من الجنوب ساعات حتى ولو طالت، فإن المسافة بريا بينها وبين عاصمة دولتها الأم السودان هي أكثر من أسبوع، فعندما تأخرت طائرتنا في الإقلاع من الخرطوم إلى جوبا سألت مرافقنا فيما إذا كان هناك سبيل لأن نذهب إلى جوبا بالسيارة، فنحن في دولة واحدة، فقال سنستغرق من الوقت عشرة أيام، وربما لا نصل بعد أن تخفينا وحشة الطريق وقطاعها بين طياتها، عرفت حينها أن الجنوب ذاهب عن السودان لا محالة، وعرفت كم سيحتاج السودان من وقت لتنهض، وتنهض معها مسافاتها ومساحاتها الشاسعة بينها وبين الأقاليم المبعثرة حولها في كل اتجاه، وعرفت أيضا كم من الوقت سيحتاجه جنوب السودان كي يعمر وتنشأ لها بنية تحتية كي يقف على قدميه كأول دولة تتشكل في القرن الواحد والعشرين، وفيما إذا أصبحت الدولة تلك نموذجا ناجحا لدول قد تشكلها الظروف فيما بعد.

آلاف الكيلومترات ومليارات من الدولارات

أحيانا يفكر واحد منا، في قيمة ذلك الدولار، ليعتبره لعينا عندما يقف في طريق تقدم الشعوب، وتقدم البنية التحتية للإنسان، وليعتبره ألعن عندما تذهب الملايين منه بل ربما المليارات لجيوب قلة من الناس تحكم ليبقى الشعب في جنوب السودان مثلا بلا مأوى ولا ملبس ولا مأمن، وهل سدت الطرق بوجه أولئك المسؤولين وأمثالهم كي يغنوا إلا على حساب شعوبهم، على حساب مال وقوت الفقراء الذين يعانون باكين ليضحك مسؤولوهم، الذين يكافحون ويناضلون لتأكل ثمرة كفاحهم قلة تطفو على السطح في زمن رفاهية ما بعد المعاناة.

ثلاثة عشر ألف كيلومتر من الطرق تحتاج للتعديل لا التبليط كي تسهل حركة السيارات بين مدن جنوب السودان من جهة، وبين جنوب السودان ودول الجوار من جهة أخرى، التبليط ليس في برنامج وزارة النقل في الجنوب، لأن الكيلومتر الواحد يحتاج ما يقارب المليون دولار حسب ما قال لنا (جوكوب موكيل)

المدير العام في وزارة الطرق في حكومة جنوب السودان، وقال موكيل لنا بأن تبليط الطرق في الجنوب بالإسفلت يتطلب زمنا قدره عقد كامل، وهو الذي قال بأنهم أنجزوا 50٪ من مخططهم الذي يرمي لعمل كل تلك الكيلومترات من الطرق، رغم أننا ولمدة أسبوعين هناك ننتقل بين مدن الجنوب لم نشهد طريقا مبلطا واحدا، وكنا نشعر بأننا محظوظون لو أن سيارتنا قد وصلت طريقا معدلا يمكننا نسير عليه بسرعة 80 كلم في الساعة مثلا.

التعداد لما لم يتحقق

من السهل أن تعد تقريرا بما أنجزته من أعمال، ومهمات، حتى ولو كانت تلك الأعمال والإنجازات بسيطة وعادية وغير ذات أهمية، ومن السهل أن يخرج ذلك التقرير للعلن جميلا، ويعجب صاحبه به بعد كتابته، ولهذا تعودنا على السماع وقراءة التقارير التي تذكر الإنجازات من أي مسؤول أو وزير كان، هكذا يصور لنا أولئك المسؤولون الصورة الوردية لإنجازاتهم من خلال أقوالهم وتقاريرهم، عندما سمعت أقوال المسؤول في وزارة الطرق بحكومة جنوب السودان، وقوله بإنجاز 50٪ من مخططهم، تذكرت القصة التي تروى في التاريخ الإسلامي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما مر على جماعة في المسجد كانوا يعدون حسناتهم، فرد عليهم عمر رضي الله عنه بأن لا يهتموا بذكر حسناتهم فهي لا تخفى على الله لكن عليهم بإحصاء سيئاتهم حتى يعرفوا ما هم فيه، وليتجنبوها مستقبلا، فكم سيكون رائعا لو أن مسؤولا أو زيرا خرج علينا معدا تقريرا

لا يذكر فيه ما حققه، بل يذكر ما لم يتحقق من إنجازات، ليرى بعد تقريره أن شيئا كثيرا بقي ولم يحققه وعليه بالبحث عن زمن تحقيق تلك الإنجازات غير المحققة.

طريق جوبا - نوملي

أثناء عملنا على تقرير الطرق في جنوب السودان، اخترنا طريقا استراتيجيا يصل جوبا بدول الجوار، نتعقبه ونصوره لنعرف واقعه، فكان أمامنا الطريق من جوبا العاصمة إلى نوملي على الحدود الأوغندية، حيث هو الطريق الاستراتيجي الوحيد الذي يربط الجنوب بدول الجوار، وهو الطريق الذي ركزت وزارة الطرق عملها عليه، وعمل في الطريق جسورا عدة وتعديل مائتي كيلومتر، والجنوب يحتاج لعمل جسور كثيرة بسبب الأنهر والجداول والتضاريس الطبيعية، وقد أكملت ستة عشر جسرا استغرق عمل الواحد منها ستة اشهر حسب ما قال لنا المهندس في شركة إيات السودانية المكلفة بعمل جزء من الطرق في الجنوب، طريق جوبا - نوملي وهو الطريق الوحيد الذي يمكن للسيارة أن تأخذ معدل سيرها شبه الطبيعي عليه، فقد قطعنا تلك المسافة بثلاث ساعات فقط، وذلك الطريق تكفلت بتبليطه كاملا الولايات المتحدة الأمريكية لأهميته وكانت هناك شركة

تركية تعمل عليه وتقول بأنها ستنهيه في أغسطس القادم، أي بعد عشرة أشهر من عملنا التقرير، قطعنا الطريق حتى نوملي تلك البقعة التي تبدو من بعيد جنة الله في الأرض.

كنز يفتح أبوابه

ظهرت لنا نوملي من تل صعدت عليه سيارتنا لتنزل بعدها فتدخل نوملي، أراض خضراء منبسطة، كانت تعكس أشعة الشمس من وسط السماء على ماء نهر كان في مرحلة شيخوخته، فلا يستطيع أن يسير مستقيما كما النهر الفتي، فاضطر كي يلتوي يمنة ويسرة ويدخل السودان من الجنوب مرة وأوغندا أخرى، نوملي آخر بلدة سودانية من الجنوب على الحدود الأوغندية، وهي نقطة ربط الجنوب بدول الجوار، من نوملي تتدفق عشرات الشاحنات المحملة بما تعرفه ولا تعرفه يوميا من دول الجوار وبخاصة أوغندا إلى جنوب السودان، ومنها تتدفق المئات من العمال وغيرهم من تلك الدول إلى الجنوب، أصبح جنوب السودان قبلة لكل من لا عمل له في الدول المحيطة بالجنوب ليجد له عملا، أي عمل كان، فأولئك الأجانب يدخلون جنوب السودان ويصنعون من شيء ولا شيء عملا يجلب من وراءه مالا يعود به إلى دولته، دون نظام

وضوابط، الناس يتدفقون على جنوب السودان من أوغندا مشيا، وركبانا، ركبانا في شاحنات، وسيارات، بل دراجات هوائية وبخارية. فالحالة تبدو وكأن كنزا لا صاحب له انفتح ويتدفق إليه الناس للحصول على شيء ما.

الطريق من جوبا إلى نوملي هو الوحيد الذي سيبلط في الجنوب، تبرعت الولايات المتحدة الأمريكية بمبلغ مائتي مليون دولار لتعبيد وتبليط هذا الطريق ليكون شريان الحياة الذي يربط بين جنوب السودان وخارجه، بل بالأحرى ليكون هو الشريان الذي سيفصل الجنوب تماما من السودان ليربطه بدول الجوار، والطريق من جوبا إلى نوملي حوالي مائتي كيلومتر! وبهذا المبلغ يمكن تبليط طريق بهذا الطول في الجنوب حسب ما قال لنا المدير العام للطرق في الجنوب بان الكيلومتر الواحد في التبليط بالقار يحتاج إلى ما يقارب المليون دولار.

شعارات لا تغني من جوع

«من حلفا إلى نوملي سودان واحدة عبر الأميال المليون المربعة، وتسع للجميع» كان هو الشعار الذي يتغنى به السودانيون الحريصون على وحدة السودان، وكانوا يطالبون الجنوبيين بعدم الخطأ في التصويت في الاستفتاء عن تقرير المصير لصالح انفصال الجنوب، فالسودان قارة غنية بمواردها الطبيعية وأي انفصال سيضر بالسودان جميعا جنوبا وشمالا، وكأن الوحدة بعد استقلال السودان كان في صالحهم! أو أن السودان بعد الاستقلال في دولتها الكبيرة ذات الأراضي الشاسعة عاش في رفاهية واستقرار وسلام! كيف يمكن أن يقنع السوداني في الشمال مواطنه الجنوبي بان الوحدة في صالحه وتلك الوحدة ومنذ ستين عاما لم تمد حتى الآن شارعا في الجنوب، ولم يبن بيتا لمواطن جنوبي، ناهيك عن بنية تحتية تؤهل أجمل بقعة طبيعية في العالم للحياة البشرية، ولم تستطع تلك الوحدة حتى الآن من صنع ثقة في المواطن الجنوبي بان

الوحدة في صالحه، أظن حتى قبل أن تأتي نتيجة الاستفتاء لصالح الانفصال كان الجنوب قد انفصل عمليا، فكل مواطن جنوبي كان يشعر في نفسه بأنه شيء آخر غير السوداني القديم! كان يشعر بأنه إنسان جديد وسيتمتع بحقوق جديدة منها دولة جديدة بكامل سيادتها ومعالمها، وكان يستعد لذلك، بل حتى المسؤولون في الخرطوم لم يكن أمامهم إلا أن يستعدوا أيضا لذلك الحدث التاريخي في السودان، والذي سيؤدي لا محالة إلى تقسيم السودان وانفصال الجنوب، قبل الإعلان عن تلك النتيجة، لم يكن المواطن في الجنوب يحن إلى شيء له في السودان الواحد، بل على العكس أصبح يتلهف مشتاقا إلى ما ستجلب له دولته الجديدة، دولته بعدما يحكم هو نفسه بنفسه، بعدما يتحقق له ما يطالب به.

من (زاخو حتى الفاو) هذا الشعار أيضا كان قائما زمن النظام السابق في العراق، كان هو العراق الواحد الذي يتغنى به المغنون والشعراء، كان اسم زاخو مشهورا في العراق وذلك لأنه كان يستخدم كثيرا لذلك الغرض، لكن ذلك الشعار لم يكن يقنع المواطنين الكورد في العراق بأنهم مواطنون عراقيون من الدرجة الأولى أبدا، ولم يكن المواطن الكوردي يقتنع بأن الاهتمام الحكومي بمدنه في كوردستان يلقى الاهتمام نفسه في المدن

العراقية الأخرى، ولم تكن أية بقعة في كوردستان مكان اهتمام العراقي غير الكوردي إلا في الأشعار والأغاني عندما كانوا يسمون كوردستان بـ (الشمال الحبيب)، لم يكن في كوردستان ما يجذب المواطن العراقي غير الكوردي سوى طبيعتها الخلابة عندما كانوا يهربون من سخونة الوسط والجنوب ليتمتعوا بأجواء الطبيعة في الشمال، تذكرني هذه الفكرة بمواطن عراقي انقطع عن زيارة كوردستان لأكثر من عقد لأن النظام لم يقبل أن يدخله، منذ حكم الكورد أنفسهم بعد انتفاضة واحد وتسعين وتسعمائة وألف، وعندما زار كوردستان بعد زوال النظام عام ألفين وثلاثة، تجول في مصايف كوردستان بحرية وقال بعد أن شعر بأريحية الاستقرار والجمال، على عكس بقية أجزاء العراق: «آه من هذولة الأكراد الـ..... .. مانعينا من شمالنا الحبيب من سنين» لم يرق له أن يلوم النظام الذي كان يحكمه ويمنعه من زيارة كوردستان خارج سلطاته، فلام الشعب الكوردي لأنه يحكم نفسه بنفسه في حالة طالما أقلقت العراقي مثل صاحبنا السائح.

ذلك العراقي لا يريد من الكوردي أن يكون حريصا على وحدة العراق وحسب، بل يريد أن يكون الكوردي يلغي ما أنجزه من عشرين سنة، ويلغي مطالبه، فلا يريد أن يكون له برلمانه،

وحكومته، ونفطه، وبيشمركته، ويجب أن يكف عن القول بان كركوك جزء من كوردستان رغم أن الكوردي لم يقل بعد أن كوردستان ليس جزءا من العراق! بل ذلك العراقي يريد أن يلغي الكوردي الدستور الذي ثبت الحد الأدنى من المطالب الكوردية في العراق ولم يقترب حتى باستحياء من قضية تقرير المصير، الذي منح لجنوب السودان في اتفاقية نيفاشا ونال الجنوب استقلاله وفق ذلك. فكيف سيستطيع أن يتغنى الكوردي أيضا مثل ذلك العراقي بشعار (من زاخو حتى الفاو) وقبله كيف سيقتنع المواطن في جنوب السودان بالشعار: (من حلفا إلى نوملي).

فقر وجهل وحرمان

بدت لي نوملي مسرحا طبيعيا في غاية الجمال، يتحرك عليه أناس محرومون من كل شيء سوى قطع قماش تستر عوراتهم، بل أحيانا محرومون حتى من تلك القطع من القماش، عرفت ذلك عندما رأيت البقع المائية الآسنة التي أحدثتها مياه النهر على ضفافه، نتيجة تسرب مياه المجاري من ما بني على ذلك النهر من أكواخ وأبنية من الصفائح وغيرها، فكنت أرى أجساما سود تسبح في تلك البرك الآسنة، وتصب بأوان من تلك المياه الآسنة على رؤوسهم، لم اعرف بالضبط هل أولئك كانوا يغسلون أجسامهم، ويسبحون، أم تلك كانت عادات وتقاليد بل ربما عبادات يمارسها المتعبدون الوثنيون الذين يشكلون الغالبية في جنوب السودان، فبعدما ظننت أن أولئك أطفال دخلوا مياها آسنة ليلعبوا والكبار لا يمنعونهم من ذلك، تيقنت أن الأمر غير ذلك فأولئك كانوا كبارا، عرفتهم بعدما وقف بعضهم على قدميه، وتحرك بمنة ويسرة.

رغم التشابه في المظالم والحقوق بين جنوب السودان وكوردستان، إلا أن الكورد يأبون الجهل، والتخلف ويسعون ليكونوا على الدرجة نفسها من غيرهم الواعين لا بل وأكثر وعيا.

الدولة الكوردية

ربما فرحة الشعب الكوردي لا تقل عن فرحة شعب جنوب السودان بحصوله على استقلاله وتشكيل دولته، أو على الأقل أن الشعب الكوردي أسعد من بقية العالم من استقلال جنوب السودان، لأنه بذلك يريد أن يبدأ عصرا جديدا تتشكل فيه دول جديدة، ظنا منه انه (الكورد في كوردستان) أكثر استعدادا وتأهلا لتأسيس دولته من غيره لو تسنت له الظروف المناسبة. ويرى الشعب الكوردي أن شأن القبول الدولي لدولته هو أكبر عائق في طريق تحقيق حلمه، وكان ذلك القبول المعدوم هو الذي منع عنه تلك الدولة في بداية القرن العشرين ويتمنى وينتظر تغييرات تحصل في الذهن الدولي الذي قد يستسيغ فكرة الدولة الكوردية بعد مرور مائة عام من المعاناة والتجربة.

لكن ليس الإشكال في الذهن الدولي فحسب بل إن قبول الجوار يشكل العائق الأكبر في طريق الدولة الكوردية من القبول الدولي، فدول الجوار لكوردستان ترفض رفضا قاطعا أية دولة

كوردية، وهم مستعدون للذهاب بعيدا في حروب مأساوية من اجل منع الكورد عن تحقيق حلمه في الدولة.

المشكلة تكمن أيضا في أن القضية الكوردية في هذه الدول لا تتشابه مع بعضها في التاريخ والواقع والمستقبل ففي الوقت الذي يملك الكورد حكما ذاتيا في كوردستان العراق ولهم برلمان وحكومة، فإنهم محرومون حتى من التحدث بلغتهم والتعبير عن ثقافتهم وهويتهم إلا مؤخرا كما في تركيا، ويمنعون حتى من المواطنة كما في سوريا، وفي إيران طمست القضية الكوردية إلى حد النسيان، فعندما يريد الكورد دولة أين سيكون موقع هذه الدولة؟ هل في كوردستان الكبرى؟ وذلك الأمر سيؤدي إلى تقسيم أهم أربع دول في المنطقة، أم في كوردستان العراق فقط؟! ربما إذا كانت هذه الدولة في كوردستان العراق فقط سيكون الرفض أهون من تركيا وإيران لتلك الدولة فيما لو كانت هناك خشية بتمديد فكرة الدولة إلى كوردستان تركيا وإيران، وسوريا ستقبل بدولة كوردية في كوردستان العراق إذا اطمأنت أنها لا تعكس سلبا على القضية الكوردية في سوريا، والعراق قد تقبل بدولة كوردية فيما إذا كانت هذه الدولة تشمل كل دول الجوار، لتصعب على كوردها من تحقيق فكرة الدولة لكن كل ذلك يقع في دائرة المستحيل تحقيقه، فالقضية الكوردية ذات التأثير المتبادل أردنا ذلك أم لم نرد، وبهذا تختلف القضية الكوردية من

قضية جنوب السودان، حيث أن جنوب السودان كان في مواجهة جبهة واحدة مع مركز دولته الأم الخرطوم فقط، في الوقت الذي كان الموقف الدولي داعما له، وكذلك دول جوار السودان من الجنوب، وقضية جنوب السودان كانت قضية تثير مشكلة لدولة واحدة فقط هي السودان والدولة تلك كان في مركز الموقف السلبي العالمي منه، على عكس القضية الكوردية التي تثير مشاكل لدول في مواقع إستراتيجية وللدول الكبرى مصالح معها.

قصف بين دعم وقبول وصمت

لا أظن انه في عالمنا اليوم بقعة مثل كوردستان تتعرض لقصف مدفعي من دولة كإيران، وبدعم جار آخر كتركيا، وقبول من دولة الأم كالعراق وسط صمت رهيب من دولة تحتل العراق وهي أمريكا، أي جمع للتناقضات! هذا الذي يحدث على أرض كوردستان لتتكرر القصة الحزينة أن لا أصدقاء غير الجبال؟!!

إيران مرفوضة أمريكيا في كل شيء إلا في حالة عدائها للكورد، سواء كان هؤلاء الكورد هم في كوردستان إيران أو العراق، وتركيا وإيران يجمعهما كره الكورد والعداء لتطلعاته وحقوقه، والعراق لا يبدي موقفا من قتل إيران لكورد العراق وهو دليل على الموافقة في الوقت الذي يريد العراقي أن يكون الكوردي في العراق يغني لوحدة العراق ولا يفكر بالغناء لإستقلال كوردستان، لكن لا يعرف كل أولئك بأنه حتى الجنين الكوردي في بطن أمه والواقع هو هذا سيغني لاستقلال كوردستان حتى ولو كان ذلك مستحيلا، لأن المستحيل أحيانا

يولد اللحن والحنين، والحنين إلى المستحيل، عزف على أوتار الحزن، وكلما زاد الموال حزنا زاد جاذبية.

سيقول الكوردي (يان نه مان يان كوردستان) بل سيكون ذلك أحلى أنشودة حتى ولو كانت في لحن حزين، كم من كوردي رفع إلى حبل المشنقة وهو ينشد ذلك البيت، وكم من كوردي قتل تحت التعذيب وهو يردد تلك الأنشودة في لحنها الحزين، وكم من بيت دمر وقرية أهلكت وعين ماء جففت ومسجد هدم في كوردستان لأن الكوردي، يلد ويريد دولته فلا يجدها، فيكبر ويثور ويقتل أو يسجن ويعذب أو يرحل منفيا من الأرض، وهو ينشد أن (يان نه مان يان كوردستان).

الأرض تتكلم كوردي

ألا يجدر بالشعب الكوردي الذي يبلغ تعداده الأربعين مليون إنسان أن يصطف في كورس كبير وعلى أكبر مسرح من حيث المساحة وهو كوردستان لينشد (يان نه مان يان كوردستان) وبأعلى صوته وفي أجمل لحن، أظن أن ذلك الصوت سيهز ضمير العالم النائم عن القضية الكوردية، وسيرعب الدول والأنظمة التي تطمس القضية الكوردية، تلك الأنظمة التي تكاد تنهار أمام شعوبها وهي تطلب منها الحرية، فكيف إذا تحرك الشعب الكوردي حركة رجل واحد وطالب بحقوقه من سالبيها.

نشيد (يان نه مان يان كوردستان) بدون شك سيكون أقوى من نشيد (الشعب يريد إسقاط النظام) النشيد الذي أسقط الأنظمة تلو الأخرى وهي لا تزال تسقط، فهلا تكلمت الأرض بالكوردي مرة، كما يريد الثوار العرب في البلدان العربية أن تتكلم الأرض اليوم بالعربي، طالما غنت الأرض قديما في كوردستان بالكوردي لكن للأسف لم يكن يسمع لها غير الجبال

والوديان والأنهار فكانت هي ترقص على ألحان الغناء الكوردي بمعزل عن المشاهدة العالمية، كما يشهد العالم الآن اللحن العربي في بلدان عربية وهو يرقص، كل شيء يرقص حتى العالم الأجنبي أمام الأرض وهي تتكلم العربية.

من سيبادر؟!

الكورد يكاد ينسون أنهم لا يزالون في عصر الثورة، يكاد يقتنعون بأنهم يعيشون عصر ما بعد الثورة، في كوردستان العراق خاصة، وهم بذلك مخطئون، علينا أن لا نطفئ شعلة الثورة في نفوس الجيل الجديد، بل يجب أن نوقدها ولو كانت قد انطفأت أو أطفئت، نوقدها ليتحرك الشعب، ننبه السياسيين الكورد ونوقظ فيهم الشعور بأنهم ركنوا للمناصب والكراسي وآثروا ترف الحياة. ونرى أحيانا واحدا منهم يتفلسف ليبدي من نفسه حريصا على مصالح الآخرين قبل مصلحة شعبه، بل يكاد يقفز على مصالح شعبه لمصالح الآخرين، لم يكن يريد منه شعبه أن يكون كذلك، بل كان يريد منه أن يكون ذلك البيشمركة الثائر في الجبال حتى ولو كان في بغداد، هم بهذا سيفقدون زمام المبادرة، ويتركهم الجيل في زوايا النسيان.

إذا كان الشعب راضيا بالسياسي اليوم فليس لكونه سياسيا ناجحا، ولا لأنه نجح في فن الإدارة، بل لأنه كان ثائرا ناجحا

ومناضلا لإنجاح الثورة، لم ينجح سياسيو الكورد بعد في السياسة، وفي صناعة الحياة وفي الإدارة، فهم لا يزالون في قاعة الامتحان و قد يرن جرس انتهاء الوقت، ويخرجون ساقطين لا سامح اللّٰه، وسيسجل عليهم التاريخ ذلك، لكن إذا سقط السياسي هذا لا يعني أن الشعب سيسقط أيضا، لأن لا شعب يسقط وفي صدره جذوة الثورة موقدة.

لا خيار غير الانفصال

رغم التشابه في الكثير من الجوانب في المشكلة بين جنوب السودان وكوردستان العراق، إلا أن الاختلاف الكبير الذي لمسناه فترة تواجدنا هناك هو في التطلع الموجود لدى شعب جنوب السودان، والذي كان يتطلع للانفصال عن السودان وتشكيل دولته، وهو الخيار الوحيد الذي كان يرى أمامه، ولا خيار غيره، وكان التجييش العاطفي والتهيئة الفكرية هناك باتجاه ذلك، ومن كان يفكر في غير ذلك كان يعتبر شاذا، بل محاربا من قبل الآخرين، لهذا حتى من كان له رأي آخر لم يكن يتجرأ البوح به علنا، لم يكن تطلع الانفصال يواجه عوائق ومشاكل بل كل العوامل داخليا وخارجيا كانت تصب في مصلحته، عدا بعض المطالبات التي كانت تأتي على استحياء من الشمال (الخرطوم) كانت تحاول أن توجه التطلع الجنوبي إلى وحدة السودان، تلك المطالبات كانت تخرج من الخرطوم لكنها لم تكن تصل جوبا، ربما بسبب المسافات الشاسعة بين الخرطوم وجوبا، حيث كانت

تلك المسافات تؤدي بتلك المطالبات الوحدوية إلى التبخر قبل وصولها جوبا، لم يكن يهم المواطن في الجنوب غير التغني بالانفصال والرقص على أنغامه التي كانت تملأ الأكواخ، والأزقة، والمدارس والساحات، في مناسبة وغير مناسبة.

التطلع لغير خيار الانفصال

في كوردستان لم يكن الشعب يتطلع للانفصال عن العراق وتشكيل دولته، بل كان التطلع لخيارات عديدة أخرى، تتغير بين الفينة والأخرى، خيار الحكم الذاتي مثلا، أو مؤخرا الفيدرالي، حتى تلك الخيارات طالما واجهت عوائق كثيرة داخلية وخارجية، فكلما طرح خيار يطالب به الجانب الكوردي في العراق جوبه برد قوي سواء من بغداد كسلطة أو من عراقيين غير كورد كشعب، أو من خارج بغداد كدول الجوار وحتى غير الجوار (الدول العربية)، فلم يكن هناك شيء في كوردستان العراق يدعم الخيار باتجاه الانفصال، بل كان يأتي التغني بالانفصال لحنا نشازا، وكان يلام كل من يدعو إلى ذلك رغم أن الدعوة إلى الانفصال حتى إذا كانت، كانت فردية وتوصف بعدم الإدراك السياسي، ولم يحصل تطور في التطلع للانفصال، حتى بعد انتفاضة آذار عام واحد وتسعين وتسعمائة وألف وما أعقبتها من الهجرة المليونية، وتغيير الظروف في كوردستان العراق،

وتشكيل منطقة آمنة من قبل التحالف الدولي، وعندما أسقط نظام صدام حسين بالحرب الأمريكية على العراق عام ألفين وثلاثة ظهرت للسطح ما سميت بحركة الاستفتاء التي كانت تشجع على الانفصال وتشكيل الدولة الكوردية، وتعمل من اجل استفتاء شعبي يقرر الشعب الكوردي في العراق مصيره بالانفصال عن العراق أو البقاء معه، وعمل أول استفاء غير رسمي، صوت ما يقارب 98٪ من المصوتين لخيار الانفصال، إلا أنه لم يعر أي انتباه لتلك النتيجة، بل جاءت المحاولات لوأد تلك الحركة (حركة الاستفتاء) ولم نسمع عنها بعد ذلك شيئا، حتى دون أن يتحدث عضو من تلك الحركة ماذا كان سبب زوالها .

التطلع الشعبي لا يقاوم

التطلع الشعبي الجمعي لشيء ما، مهم جدا لتحقيقه، حتى ولو كان ذلك الشيء يصور وكأنه مستحيل، فلا مستحيل يقف في طريق هذا التطلع، لا يمكن لنظام مهما كان قويا أن يقف في طريق الشعب، وبخاصة إذا اجتمع هذا الشعب على هدف واضح، لم يكن باستطاعة أحد أن يمنع شعب جنوب السودان من الانفصال عن السودان وتشكيل دولته المستقلة، لأن الشعب أجمع على أن ينفصل وتكون له دولته، لم يكن يفكر في غير ذلك، وساعده على ذلك الرغبة الدولية ورغبة دول الجوار إضافة إلى عدم ممانعة قوية من الخرطوم، بل الخرطوم كانت تفكر في مرحلة ما بعد الاستفتاء وانفصال الجنوب منه وتقسيم الدولة الأم، كيف ستكون علاقتها مع الدولة الجديدة؟ و كيف ستكون الخرطوم بعد التقسيم؟ هذا ما كان يفكر فيه الشمال السوداني الذي شعر بأن الجنوب ذاهب عنه لا محال، الوضوح في الهدف والجرأة في الإعلان عن السعي لتحقيقه والدعم الداخلي

والخارجي، وضعف المعوقات في الطريق كل ذلك سهل انفصال جنوب السودان، وتقسيم البلد، وهذا ما لا يتوفر لكوردستان، فليس هناك هدف واضح عن ماذا يريد الكورد بالضبط؟ فهل الهدف هو دولة؟ وأين تكون الدولة؟ أو الهدف هو الفيدرالية مع العراق؟ ما نوع هذه الفيدرالية؟ وهل المركز متفق مع الكورد على ذلك؟ أو هل ستحقق الفيدراية الطموح الكوردي؟ وليس هناك أيضا الجرأة باتجاه تحقيق الهدف، إضافة إلى فقدان الدعم الداخلي والخارجي للوصول إلى ذلك الهدف الكوردي سواء كان في الدولة أو غيرها كالفيدرالية بل وحتى الأدنى منها كالحكم الذاتي الذي كان هو محاربا أيضا من المركز رغم أن ذلك المركز كان قد أعلن عنه وأصدر بيانا بذلك أيضا.

ما بعد آذار 1991

واتفاقية نيفاشا 2005

التجربة الكوردية في الثورة والإدارة، في التاريخ والحاضر، في الشكل والمضمون، تسبق تجربة جنوب السودان، لكن رغم ذلك فإن تجربة جنوب السودان أدت إلى الدولة دون التجربة الكوردية، فلم يصل الانعطاف التاريخي الكبير بعد انتفاضة آذار عام واحد وتسعين وتسعمائة وألف بكوردستان العراق إلى أكثر مما نحن عليه الآن من فيدرالية مهددة من المركز ومن دول الجوار، وأكثر من نصف أراضي كوردستان في العراق غير مرتبط بإقليم كوردستان، بل حتى الفيدرالية المعلنة عنها على استحياء من قبل بغداد، تكاد تكون غير معترف بها حتى الآن إلى درجة بحيث يثق المواطن في كوردستان ويطمئن إلى أن تجربته تقف على ارض صلبة، وغير معرضة لهزات تطيح بها. على عكس اتفاقية نيفاشا 2005 والتي حددت وفق الاتفاقية بين النظام في السودان والحركة الشعبية في جنوب السودان أن

يحدد شعب جنوب السودان مصيره بعد خمس سنوات من الاتفاق، وكان ذلك ونفذت الاتفاقية والنتيجة دولة جنوب السودان، وتقسيم السودان وقبول الخرطوم بذلك في ظل احتفال الجنوب بدولته.

إذن منعطفان تاريخيان عظيمان بكل المقاييس في تجربتي كوردستان العراق وجنوب السودان احدهما يولد دولة جديدة دون الأخرى، كدولة جنوب السودان، فهل يا ترى سننتظر انعطافا تاريخيا أكبر مما حدث في انتفاضة آذار عام واحد وتسعين ومن ثم احتلال العراق من قبل الأمريكان كي توفر الفرصة للكورد لتحقيق حلمه التاريخي، أم سيكتفي الكورد في العراق بما حققه، هذا إذا لم تغير بغداد من موقفها من إقليم كوردستان الحالي بعد أن أبقى بغداد على العديد من المشكلات بينها وبين إقليم كوردستان عالقة كالمناطق المتنازع عليها، والنفط، والبيشمركة وغيرها ويمكن لها كلما شعرت بقوتها مقابل ضعف الإقليم أن تحرك مياه مشكلة من تلك المشكلات باتجاه إزالة ما حققه الكورد إلى الآن.

من أكثر خبرة؟!

الدولة في العراق عرفت كيف تتعامل مع السياسيين الكورد بشأن القضية الكوردية وأصبحت خبيرة بتعاملها مع التجربة الكوردية، وتستغل ود السياسي الكوردي كي لا يخطو ذلك السياسي خطواته أبعد مما بين يديه من انجازات، لكن الدولة تذهب بعيدا جدا عندما ترى الفرصة مناسبة وفق سياسة شمالنا الحبيب، فالكورد أحباء عند الدولة شرط أن لا تكون هناك كوردستان، وأن لا يكون هناك كوردي يطالب بحقوقه، وكان الأجدى أن يكون السياسيون الكورد أكثر خبرة في التعامل مع الدولة العراقية باعتبار أن سياسيي الكورد الحاليين أقدم من سياسيي الدولة العراقية الحاليين، وكان الأجدر أن يكونوا أكثر خبرة منهم، وعلى أن لا يقول في يوم ما رحم الله صدام فهو قدم للكورد أكثر من السياسيين العراقيين الحاليين أو من سياسيي عراق الغد.

توريت مشعل الحرب

كان ضمن أجندتنا في جنوب السودان، عمل تقرير عن توريت، تلك البلدة الحدودية في أقصى الجنوب، والتي منها بدأت أطول حرب أهلية، استمرت ما يقارب الستين عاما، وأوصلت السودان للتقسيم، وانفصال جنوبه عنه مشكلا جمهورية جنوب السودان، قبل أن تتشكل تلك الجمهورية بأشهر كنا هناك لنعد تقريرا، نتطلع إلى التاريخ، والقصة كيف كانت ومتى كانت وكيف هي الآن؟

قلة من الصحفيين وصلوا توريت، لبعدها وصعوبة الوصول إليها، وكلما كنت أطرح الموضوع على منسقنا وهو من جنوب السودان متى نتوجه إلى توريت كان شيئا من الضجر يبدو على وجهه، وبعد أن كادت مهمتنا تشرف على نهايتها في جنوب السودان ولم يبق أمامنا إلا تقريران احدهما عن توريت وقصة الحرب، وثانيها عن قصة محارب قديم يسرد لنا ما وقع، وكنا حددنا أن يكون ذلك المحارب أيضا من توريت، أجبرنا منسقنا

على أن يأخذنا إلى هناك، كنا نتصور أن ساعتين أو ثلاث كافية لنكون في توريت فالمسافة لا تكاد تكون مائة كيلومتر، حتى ولو كان الطريق ترابيا فتكفينا ساعتان لقطع تلك المسافة.

الطريق إلى توريت

شعرت بأريحية عندما جلب منسقنا سيارته لنركبها، وتوجهنا في الطريق إلى هناك، كان ذلك في عصر أحد أيامنا في جوبا عندما تركناها باتجاه توريت، وما أن خرجنا من جوبا وسيارتنا تهرب مما تترك ورائها من تراب الطريق، حتى شعرت بالسعادة كوني اقتربت من إنهاء مهمتي في جنوب السودان، كنت أنظر إلى الوراء لأرى قرص الشمس وراء غبار الطريق، فطلبت من منسقنا الوقوف لنصور الطريق ومن بعيد يظهر قرص الشمس، لنستفيد من لقطة جميلة في بداية تقرير من تقاريرنا، فما كان من مصورنا حتى وضع الكاميرا في منتصف الطريق ووجه العدسة باتجاه قرص الشمس ولا يزال غبار الطريق الذي رفعته السيارة من الأرض لما يعد ساقطا بعد، عدسة الكاميرا تصطاد قرص الشمس وهو يميل باتجاه الغروب، في بداية أمسية لنا في جوبا، ومن أمامه حبيبات الغبار تتناثر ببطء لتعود إلى الأرض، شعرت بقلق فالشمس ستتركنا لوحدنا لليل ليس

كلياليا السابقة، في طريق لا نعرف معالمه ولا طبيعته، كل ما نعرفه هو أن توريت بلدة في نهاية الطريق الذي تقطعه سيارتنا، وسنعمل منها تقريرين من تقاريرنا التي كلفنا بها من قبل الجزيرة، وما نعرفه أيضا بان أمرنا مسلم لمنسقنا الذي يقودنا إلى عالم سنراه لأول مرة رغم أنني قرأت شيئا ما عن توريت قبل قدومي إليها، فالشيء الوحيد الذي يطمئننا هو أن منسقنا من جنوب السودان الذي لا يأبه بشيء، ويسير بسيارته في سرعة كبيرة مقارنة بالطريق الذي نسير فيه، الطريق ترابي، وكأننا نجلس في هزاز يرفعنا ويخفضنا، ولا تبطأ سرعة السيارة إلا بعد أن يدخل منسقنا بسيارته في حفرة ويضرب برؤوسنا في سقف السيارة، ومصورنا كان يتأفف خشية من الكاميرا وملحقاتها، لا خشية من فقراتنا التي كادت تترك أماكنها منزلقة أو منكسرة، وبين الحين والآخر نفتح منافذ السيارة كي لا نختنق مما دخل إليها من تراب الطريق.

ليل الطريق إلى توريت

أمامنا لا نرى سوى طريق ترابي وعر، يلتف يمنة ويسرة، يرتفع حينا وينزل بنا حينا آخر، من بعيد سماء زرقاء متلونة بغيوم بيضاء، على جانبينا غابات تخفي الطريق وما في الطريق بينها، عندما حل الليل علينا والظلام أرسل بوحشته وبعد أن طال بنا الطريق شعرنا بهدوء مشوب بالقلق يسيطر علينا داخل السيارة، التعب يجعل النوم يسرقني من أجواء الطريق، لكن سرعان ما أستيقظ على ضربات السيارة في حفر الطريق، كلما كثف الليل ظلامه كلما تلألأت النجوم في السماء، نحن نعيش في لوحة من الجمال المشوب بالقلق والتعب ولا اخفي عليكم وبشيء من الخوف كنت أشعر به كلما دخلنا أعماق الليل وسط غابات مجهولة وطريق موحش، عندما كنت أرسل بعض الكلمات لأستفسر عما تبقى من الطريق كان صاحبنا الجنوب سوداني يلتفت إلي ولا أرى سوى أسنانه الناصعة البياض، وعيونه المدورة الكبيرة، كان كثير الضحك فعندما كان يضحك كان لسانه

الشديد الحمر يرتجف بين أسنانه، كان يقول: «يا زول لا تقلق سنصل».

عشاء في ليل الطريق

بعد أربع ساعات توقفت سيارتنا لنتناول العشاء في قرية تبيع نساؤها اللحم المشوي في الطريق، والشاي، كل منا جلب له صخرة ليجلس عليها، نسيم كان يهب علينا في تلك القرية، كان يجلب رطوبة الأشجار من الغابات المحيطة بنا، أجمل شيء كانت السماء التي لأول مرة أراها تحمل كل هذا الكم من النجوم التي كانت تتلألأ، تذكرت طفولتي في كوردستان عندما كنا في القرية، وكان يحل الظلام على أجواء القرية، ولا أنوار غير أنوار الفوانيس الباهتة الضوء، وننام في الصيف فوق أسطح الغرف الترابية كان السماء أجمل ما يكون، فكنت أحاول بيدي أن ارسم رسوما هندسية مربعات مضلعات مثلثات مستويات، وذلك عن طريق الربط بخطوط مستقيمة وهمية بين النجوم، مرة رأتني أمي وأنا ممتد على فراشي ورافعا يدي وأصبعي إلى السماء وأحركها باتجاهات مختلفة فأبلغت أمي أبي بان ابننا قد جن يحرك يده في السماء عندما ينام، ويتكلم مع السماء! كنت أتلذذ

بذلك في طفولتي لأن النوم كان يسرقني من رسومي الهندسية وتعدادي للنجوم، تذكرت ذلك وأنا في وحشة الغابات الاستوائية في جنوب السودان وسط ليل زينت سماءه بالنجوم.

منتصف الطريق

كدت أفقد الثقة بزميلنا الجنوب سوداني حول معلوماته عما تبقى لنا للوصول إلى توريت لأنه قال لنا أن الطريق من جوبا إلى توريت ساعتان، والآن قطعنا أربع ساعات ولازلنا في الطريق، فسألت المرأة التي باعت لنا اللحم المشوي وشربنا شايا منها، قلت كم بقي لتوريت فقالت انتم قادمون من جوبا، قلت لها نعم، فقالت : «يا زول انتم في وسط الطريق» فبدأ صاحبنا السوداني يقهقه ضاحكا ويعيد لوحة وجهه التي تعودنا عليها منذ أسبوعين، فقلت له «اضحك يا زول الطريق إلى توريت ساعتان» فازداد ضحكا وقهقهة قال «ساعتان أو ثلاث بقيت لنا لأن الطريق من هنا إلى هناك سيكون نزولا، كنا في طريق صعودي حتى هذه المنطقة».

كيف سنقضي الليلة؟

توكلنا على الله لنقطع بقية الطريق، بدأنا نقاشنا في السيارة بأننا سنصل في ليل متأخر فأين سنتوجه وهل هناك فنادق، فتحدث الزميل السوداني بوجود فنادق في توريت وولد ذلك لدينا ارتياحا لأننا سنتوجه لفندق والصورة التي كانت في ذهننا عن الفنادق في توريت كصورة الفنادق في أي مكان، بل حتى لو اخذ بنا سوء الظن بتوريت من حيث التواضع فسيكون هناك لكل واحد منا سريرا ننام عليه، وحماما نستحم فيه يزيل عنا تعب الطريق، نرتاح لنستيقظ غدا صباحا على نشاط ونقوم بواجبنا.

ما لم يكن في الحسبان!

بعد أن شعرنا بأريحية بعد حديثنا عن الفنادق، وبعد أن أخذت السيارة مسارها الطبيعي، وبعد أن عدنا لنقطع ظلام الليل، فجأة توقف سائقنا وأطفأ أنوار سيارته التي كانت تنير لنا الطريق وأشعل أنوار سيارته الداخلية ورجع بسيارته قليلا إلى الوراء، قلت له ماذا حصل قال مسلحون أوقفونا، خرج من بين الظلام المحيط بنا مسلح موجه بفوهة رشاشته باتجاهنا، تمتمت مع نفسي «هذا ما كنت أخشى منه في هذا الظلام وهذه الوحشة لقد وقعنا فيما لا يحمد عقباه» لحظات مرت علي كساعات بل ربما أطول، بدأت أتلو في داخلي ما احفظه من أذكار تذكر عند مواقف الخوف والرهبة، وقرأت الآية : «ولقد جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون» تعودت على قراءة تلك الآية عندما كانت سيطرات نظام حزب البعث في العراق توقفنا بين الحين والآخر.

أمن لابد منه

وجه الرجل المسلح إنارة من يده إلى وجوهنا وحاول التعرف علينا، وبعد أن تكلم معه منسقنا من جنوب السودان، وأراه الموافقات الرسمية بعملنا سمح لنا بالمرور للأمام بعد فترة وجيزة، تقدمنا باتجاه توريت، لتخترق إنارة سيارتنا ظلمات الطريق وسط غابات موحشة، ووسط سماء تتلألأ نجوما فوقنا، بعد ذلك وقفتنا نقاط مماثلة بين مسافة وأخرى وكلما كنا نقترب من توريت كانت نقاط التفتيش تكثر، لم نخشها بعدما عرفنا أنها ضمن الاستعدادات الأمنية للحركة الشعبية للسيطرة على جنوب السودان، فرغم الملاحظات التي تعتبر بعضها سلبية والتي خرجنا بها من جنوب السودان إلا أن الاستعدادات الأمنية كانت مكثفة، وكانت طبيعية بمنطقة ستنفصل من دولة، وأنها أعدت نفسها لأي طارئ أمني ربما يستهدف المنطقة، ولم تكن تلك الاستعدادات منحصرة على الأجهزة الأمنية والعسكرية فقط بل حتى المواطن العادي كان

يرى في نفسه رجل أمن تجاه أي غريب يدخل جنوب السودان ويكون محل ارتياب لدى المواطن في الجنوب.

لم تشفع لي كورديتي

التعامل الأمني مع أي غريب يدخل جنوب السودان، جعل الجنوب بمنأى من عمليات إرهابية أو جهات خارجية تستهدف الأمن الداخلي لذلك المقطع الجغرافي الذي قد يولد انعطافا تاريخيا بتغيير جغرافي طالما كان مستعصيا على ذلك، شعرت بوجود وعي بالمسؤولية تجاه المخاطر التي قد تحيط بجنوب السودان وهو على وشك أن ينفصل من دولة الأم لتكوين دولته الخاصة، لذلك كانت الأعين تنظر إلى واحد مثلي بارتياب باعتباري لست من السودان، ولست واحدا قادما من بلد أوروبي مرغوب لديهم، لان الإنسان الغربي كان مرغوبا فيه هناك، بل ملامحي تشير إلى رجل شرق أوسطي قادم من عالم إسلامي لا يرتاح منه جنوب السودان، ولم تكن مشكلتي الكوردية والتي تشابه في بعض معالمها مشكلة جنوب السودان، تشفع لي لديهم بأنني لست كأي احد آخر من غير كوردستان.

كذلك كان كوردستان

شعرت بأن كوردستان كان أكثر استهدافا من الداخل العربي الإسلامي من استهداف ذلك الداخل لجنوب السودان، بل لم أشعر بأن جنوب السودان كان مستهدفا أصلا من الداخل العربي الإسلامي الذي ينظر إلى مشكلة كالمشكلة الكوردية أو مشكلة كمشكلة جنوب السودان بأنهما خناجر في خصر الأمة، وبأن الشعبين انفصاليان يريدان تقسيم الأمة، بل في نظر البعض بأنهما إسرائيليان احدهما في الشمال والآخر إسرائيل الجنوب، ولم أعرف السر في استهداف كوردستان دون جنوب السودان، رغم أن المشتركات بيننا نحن الكورد والعمق العربي الإسلامي أقوى وأكثر من المشتركات بين شعب جنوب السودان وذلك العمق، فنحن الكورد شاركنا في تأسيس تاريخ المنطقة وربما أكثر من العرب والترك والفرس في بعض مراحل التاريخ، بل كنا نحن الكورد منقذي الأمة في أخطر مراحلها كمرحلة صلاح الدين الأيوبي مثلا، لكن كل ذلك لم يجعلنا أفضل في

الموقف العربي الإسلامي منه من موقفهم من جنوب السودان، فطالما شعرنا نحن الكورد بمواقف عدائية أكبر وأكثر إعلانا من أوساط عربية وإسلامية تجاه قضيتنا من مواقفهم تجاه جنوب السودان، وذلك بوصفنا نحن الكورد من قبلهم بانفصاليين أو كوردستان إسرائيل ثانية، بل كان كوردستان مستهدفا من الأنظمة العربية والدولية المجاورة لكوردستان بعد اتهامنا بأننا من نريد تقسيم المنطقة، بل الأغرب في القضية بأننا الكورد شعرنا بأننا مستهدفون من الكثير من الشعب دون الأنظمة، الشعب الذي لا نشعر بأنه يستسيغ مطالبنا القومية كالفيدرالية مثلا أو المطالبة بحل مشكلات المناطق المتنازع عليها والتي لنا فيها حق، نص على حل مشكلتها الدستور العراقي لكن ذلك الأخ الشقيق العربي العراقي وربما غير العراقي أيضا، يقف مانعا في تطبيق الدستور لحل مشكلة بيننا وبينه، وفي كثير من الأحيان كان الأبرياء من مواطني إقليم كوردستان العراق ضحية عمليات إرهابية لا يستبعد أن يكون ذلك الموقف الذي تحدثنا عنه سببا لتلك العمليات.

وعي أمني مشترك

الوعي الأمني عند الشعب أقوى حصانة أمنية من الإجراءات الأمنية التي تقوم بها بعض المؤسسات الأمنية أو العسكرية الرسمية، لأن الشعب في كل شيء أقوى من المؤسسات، شعرت بذلك الوعي في جنوب السودان وهو الذي ربما حمى الجنوب من عمليات إرهابية كالتي وقعت في كوردستان العراق، ولهذا أرى من المفيد الاستفادة من هذا الدرس وهو الوعي الأمني المشترك بين المواطن والمؤسسات الأمنية، أن يشعر كل مواطن في إقليم كوردستان بأنه كإنسان في الإقليم وكوردستان كموطنه مستهدف من قبل بعض الجهات وهذا يتطلب منه وعيا أمنيا، وان يكون على أهبة الاستعداد لأي طارئ أمني يستهدفه كإنسان كوردي أو يستهدف موطنه كوردستان، الحس الأمني لدى المواطن في إقليم كوردستان يجب أن يجعله يميز الزائر لكوردستان من بين من يهدد أمن الإقليم وبين من جاء ليستمتع، وأن يكون بينه وبين المؤسسات الأمنية

علاقة مفتوحة، بل علاقة ود تجعل التعاون بينهما أمرا ضروريا، لخدمة الإقليم وخدمة المواطن، إذا أمكنا من إيجاد تلك العلاقة المهمة وكذلك إيجاد ذلك الوعي الأمني المشترك، يمكننا جعل الإقليم منطقة تتميز عن غيرها من المناطق سواء في العراق أو حتى في دول الجوار، من حيث الأمن والأمان وهذا ما يجعل من الإقليم منطقة ليست كغيرها من المناطق.

وأخيرا توريت

تجاوزت الساعة منتصف الليل، ودخلنا منطقة مظلمة معتمة لم اعرف أنها ببلدة، بل كنت لا أزال اشعر بأننا في غابات الطريق، حتى أوقف منسقنا الجنوب سوداني سيارته، وقال:

- لقد وصلنا!
- أين وصلنا يا زول؟
- لقد وصلنا توريت! يا زول..
- هنا توريت! أليست هناك كهرباء في توريت، ولا مباني..؟
- هنا توريت يا احمد يا زاويتي..
- ألم تقل هناك فنادق في توريت؟ اين سننام..؟
- هناك فنادق.. طبعا .. سنبحث عنها ..؟
- أين؟
- لقد وصلنا متأخرين.. وليست هناك كهرباء.. سنطرق الأبواب ليفتحوا لنا ..

صاحبنا حاول البحث عن فندق لننام فما كان إلا وأن أدخل سيارته في طين وجدول ماء لم يكن بإمكانه إخراجها منها، إنارة سيارتنا في تلك العتمة وصوت ماكينتها، ودوران إطاراتها القوي جعل رجل شرطة يتعقبنا بدراجته النارية حتى التقى بنا، عندما رأيته شعرت بسعادة بالغة قلت بأنه سيخرجنا من هذه الورطة التي أضافت ساعة أخرى إلى ساعاتنا السبعة في الطريق حتى وصلنا هنا، وكان الأمر كذلك بعدما ذهب وجاء لنا بمن يخرج سيارتنا من الوحل مقابل مبلغ مالي، وأخذنا الشرطي إلى فندق، طبعا فندق في عرف جنوب السودان وعرف توريت، وإلا هو اقرب لصفائح لنازحين هاربين من خطر ما تحيط بهم، نحن أيضا الآن لا نختلف عنهم فحالنا يرثى له، والتعب سيطر على كل خلية في أجسادنا، فعسى الصفائح هذه تذهب عنا بعضا من تعبنا وتريحنا لنبدأ عملنا في الصباح القادم من وراء شرق توريت، وعسى الصباح ذلك ينير لنا ظلمات توريت لنرى ماذا هنا .

كل منا دخل صفيحته في ذلك الجزء الذي سمي في توريت بالفندق، أشعل صاحب الفندق إنارة في صفيحتي التي سأنام فيها، من حسن الحظ كان في الصفيحة زاوية خصصت للحمام ودورة المياه كان كافيا ليأخذ مسافر مثلي راحته، وينام ولو بضع ساعات، فلابد له أن ينتصر على الظروف كي يقوم بواجبه بعد ساعات في توريت، ويهرب بعد ذلك عائدا منها إلى جوبا .

الأمن ثم الأمن

أيقضنا صباح توريت مثقلين بعد نوم صعب في فندق كانت مساحة غرفه ليست أكثر من مترين مربعين، وبعدما لم نر الوضع المزري للفندق نتيجة وصولنا في عتمة الليل، فتحنا عيوننا على كل ما هو مزري، فأسرعنا لترك غرفنا التي بتنا فيها لساعات قليلة لكنها كانت طويلة، أسرعنا محاولين انجاز مهمتنا لنترك توريت على عجل ونعود لجوبا، إلا أننا اصطدمنا بالروتين الأمني الذي يكاد يقتل عمل ناس مثلنا في جنوب السودان، فلم تكن السلطات الأمنية تعترف بما بين يدينا من موافقات العاصمة جوبا، وكنا نحتاج ساعتين لنحصل على موافقة ثلاث ساعات عمل فقط من السلطات للعمل في توريت، بشرط أن يرافقنا رجل أمن، الذي تأخر بالالتحاق معنا ساعة كاملة لتبقى لنا ساعتان لعمل تقريرين من توريت!

محارب قديم في ذكريات قديمة

ليس أصدق من تسجيل التاريخ وهو يسرد على ألسنة صانعيها الذين ذاقوا مرارة الأحداث، وشاهدوها بأعينهم، ويتلونها بعين الحدث في واقع حصلت فيه تغييرات كثيرة، فلو سرده غيرهم ممن لم يعيشوا الأحداث فسيسردونها بفكر الحاضر لا بفكر الماضي الذي حدث فيه الحدث، وبذلك سوف لا ينقلون الصورة الحقيقية لما وقع، هكذا بحثنا عن محارب قديم لينقل لنا الصورة، فوقع اختيارنا على مارشيلو دومونيك وهو محارب قديم في صفوف الحركة الشعبية يعيش عقده السادس تحدث لنا عن بدايات التمرد في توريت، هو كان في ذلك الوقت تلميذا في مدرسة بالكنيسة، عندما وقع التمرد الأول والذي استمر فيما بعد إلى حرب أهلية طويلة الأمد استغرقت نصف قرن من الزمان حتى أدى بالسودان إلى التقسيم وحتى بعد التقسيم لم تنه تلك الحرب تأثيراته على السودان.

نقلنا دومينيك عبر ذكرياته إلى بدايات التمرد، وكيف أن الجيش السوداني اعتقل الضباط المتمردين وكان بينهم والد دومينيك، وأعدموا جميعا في جوبا، ثم اشتعل التمرد أكثر فأكثر ليشمل جميع ولايات جنوب السودان وأخذت الحرب يوما بعد يوم قالب مشروع تطورت مطالبه إلى أن أوصلت البلاد إلى التقسيم، دومينيك رغم أنه محارب قديم ويتمتع الآن برفاهية مع عائلته في بيت فاخر بتوريت، إلا أنه لم ينس بعد معاناة الحرب ويقول "لا أحد يرغب في الحرب، الحرب تفرض على الإنسان، والإنسان لا يقدم عليها" ويضيف دومينيك قائلا "لم ننجح في السودان طوال ستين عاما بتطبيق الوحدة، الوحدة مجرد كلام، على أي وحدة نتكلم إذا لم نعرف نحن والشماليين على ماذا نتحد" نستغرب كيف أن نظاما ما لا يستطيع إقناع مواطنيه بالوحدة وتريد أن توحدهم، وقد أخطأ من يظن أن الوحدة تفرض بالقوة، فحتى لو تمكنت قوة ما من فرض الوحدة فتلك الوحدة ستكون وبالا على من فرضها، وسيأتي يوم لا تكون للقوة فيه من معنى.

ضد الوحدة

مثلما كان سهلا ومرغوبا فيه الحديث عن الانفصال والتقسيم في جنوب السودان، كذلك كان صعبا وغير مرغوب فيه الحديث عن الوحدة، حتى في الشارع كانوا يستغربون منا عندما كنا نبحث عن واحد يرغب في الوحدة دون الانفصال، ففضولنا الصحفي كان يلح علينا أن نجد الرأي الآخر غير التقسيم والانفصال، إلا أننا لم نجد ذلك الرأي في توريت، بل ذهب الأمر إلى أبعد من ذلك عندما كان مرافقنا من أمن توريت يتجسس على كل من نلتقي به ليعلم هل سيكون هناك واحد يرغب في الوحدة؟!.

لا قلق من الانفصال

دومينيك كان قلقا لأن السلام لم يأت بعد بكل ما كان يطمح إليه مواطنو جنوب السودان، لكنه متفائل بأن الانفصال سيجلب لهم ما لم يتمكن السلام من تحقيقه، ولهذا كان لابسا قميصا كتب عليه (The finale walk to freedom) وهي عبارة مشهورة للزعيم الجنوبي (جون قرنق) الذي قضي بحادث طيارة، وهو الذي كان يقود الحرب ضد السودان، وكانت صورته تزين صدر قميص دومينك، وكان في تصور دومينك أن الخطوة الأخيرة باتجاه الحرية هي الانفصال، وان الانفصال سيحقق للمواطن الجنوبي تطلعاته وطموحه، لهذا لم يكن لا القلق ولا الجهل بالقادم من الأيام ولا المخاطر تستطيع الوقوف في عاصفة العواطف الجياشة تجاه الانفصال والتي كانت تجتاح جنوب السودان.

ذكريات الماضي تشحن الحاضر

لم يكن يملك دومينيك ما يمكننا الاستفادة منه لنعتمد عليه في تقريرنا للذهاب إلى ماضي دومينيك أو أيامه عندما كان هو وزوجته من المحاربين القدامى، غير ألبوم جمع فيه صورا اصطادت لحظات من مراحل الحرب في الجنوب، كانت تلك الصور تتقلب بين يدي دومينيك وملامحه كانت تتفاعل معها، كل صورة كانت تأخذه إلى مرحلة ما من مراحل الحرب الأهلية، رغم أن الذكريات كانت مؤلمة لكن تذكرها الآن مفيدة كي يقارن دومينيك حاضره بماضيه وينطلق بها إلى مستقبله، يقول دومينيك: «إن سبب الحرب هو فقدان الثقة بين الشماليين والجنوبيين» فأي نظام لا يستطيع أن يصنع الثقة لدى شعب ما، لا يمكن له أن يفرض عليه إرادته، سواء كانت هذه الإرادة باتجاه الوحدة أو الانفصال.

ما بين نظامي حكم

عندما وصلت للخرطوم في طريقي إلى جوبا رأيت أوجه الشبه كبيرا بين ما كنت أعرفه من نظام الحكم في العراق والذي عايشته منذ أن فهمت شيئا في هذه الدنيا، وبين ما لاحظته في الدوائر الرسمية في السودان، حتى ذهب بي الظن إلى أن المؤسسات الرسمية في السودان ربما أخذت دورات لها في العراق، أو أن عراقيين دربوا السودانيين على كيفية إدارة مؤسساتهم الرسمية، وذهب بي الخاطر إلى أن العراق كان يدعم نظام الحكم في السودان في حربه ضد الجنوب، يدعمه في تجربة حروبه الكثيرة ويدعمه حتى في الأسلحة، وكان ذلك الذي يجعل من الجيش السوداني يسيطر على الجنوب ويدحر المقاتلين الجنوبيين في الكثير من المناسبات، ولهذا شعرت بان ربما بعد زوال نظام العراق السابق بزوال صدام هو الذي دفع نظام الرئيس السوداني عمر البشير للاتفاق مع الجنوبيين في كل شيء حتى ولو اجبر الجنوبيون النظام في السودان على

الاتفاق حول تقرير المصير الذي يؤدي بالتأكيد إلى التقسيم، وكان كذلك.

السودان أفقد ثقة الجنوبيين به
مثلما فعل العراق بشماله

العراق طوال تاريخه ورغم إمكانياته الهائلة في الثروة والسياسة والدعم الدولي والعربي لم يستطع صنع الثقة بكورده كي يشعرون في ذواتهم بعراقيتهم ولا يفكرون يوما ما في الانفصال، وعندما ترى الكوردي سواء كان سياسيا أو إنسانا عاديا لا يتكلم عن الانفصال أو التفكير في دولته الكوردية، مثلما يتكلم عنه المواطن في جنوب السودان، لا لكونه مؤمنا بذلك، بل لكونه لا يرى الظروف ملائمة له، مثلما جاءت الظروف لصالح أن يطلب جنوب السودان بالانفصال، فيضطر الكوردي ليتحدث عن الوحدة وعن عدم نيته في الانفصال عن العراق وتكوين دولته، والمشكلة ليست في نظام صدام حسين أو نظام من قبله أو من بعده بل المشكلة في الشعب العراقي الذي لا يتقبل معه شعبا كورديا له حقوقه وثقافته وجرى بحقه أبشع الجرائم، ولا

يحق له أن يكون ناجحا في إدارة نفسه عندما لا ينجح العراقي في الإدارة في بغداد.

فهل النظام الحالي في العراق سيتخذ الدرس من النظام في السودان؟ أم سيكون مصير كوردستان كمصير جنوب السودان؟ ذلك ما يجب أن نتحدث عنه.

تعامل لم يحل المشكلة

النظام السوداني جعل من النظام العراقي قدوة في محاربته لجنوبه، أسوة بمحاربة النظام العراقي لشماله (كوردستان)، وكان النظام العراقي قوة داعمة للسودان في حربها ضد الجنوب، وربما كان زوال نظام صدام حسين، هو زوال لأحد أعمدة القوة الداعمة للنظام في السودان، و بالتالي زوال نظام صدام كان أحد الأسباب الدافعة للسودان بقبول أن يقرر جنوبه عن مصيره، وان يتفق معه على ذلك وعلى استفتاء حول ذلك المصير الذي أدى إلى انفصال الجنوب وتكوين دولته الجديدة (جنوب السودان)، أي أن أسلوب تعامل النظام في السودان والذي قلد به النظام في العراق لم يحم السودان من التقسيم وانفصال جنوبه، لكن السؤال هو هل سيستفيد النظام العراقي الحالي من دروس التجربة السودانية؟ هل سيدرس الأسباب التي صنعت (فقدان ثقة) مطلقة للجنوب بالنظام ليهرب بقوة إلى الانفصال، ويصل إليه؟! كما حاولنا توضيح ذلك سابقا من

موضوعنا هذا، أم سيحاول سد الطرق أمام انفصال شماله كما يحلو للكثير من العراقيين أن يصفونه دون اسمه (كوردستان)؟ .

باعتقادي سد الطرق بالقوة أمام الانفصال هو الذي سيفجر كل تلك السدود المانعة ويجعل الباب مفتوحا على مصراعيه ليركض الأكراد في شمال العراق ركضا نحو الانفصال، السد الوحيد للطريق نحو انفصال كوردستان من العراق هو أن يصلح النظام في العراق بينه وبين كوردستان، وان يجعل النظامُ الكوردَ يشعر بعراقيته ويجعل من نفسه عراقيا وأن يكون همه عراقيا، وفكره عراقيا، الأمر الذي لم يستطع حتى الآن أي نظام في العراق أن يفعله!

لماذا لا يشعر الكوردي بعراقيته؟

هلا سأل النظام في العراق مرة نفسه السؤال عن سبب عدم شعور الكوردي بعراقيته؟ ولماذا لا يتصرف وكأنه عراقي؟ بل أن كل كوردي في العراق يشعر في نفسه أنه شيء آخر غير العراقي؟ ألا يجدر بالعراق أن يفكر في حل مشكلة كهذه قبل أن يخطو في اتجاه يضعه لنفسه لتصفية المشكلة كما يخطط له الآن وخطط له قبله الأنظمة دون جدوى، ألا يعتبر النظام في العراق أن هذه معضلة كبيرة تواجه العلاقة بين النظام في العراق وجزء غير الكوردي من جهة وجزء الكوردي من جهة أخرى؟!

أمام العراق كي لا يكون مصيره نفس مصير السودان، أن يغير من منطقه الحالي الذي لا يقبل أن يرى بعينه أن الكوردي يطلب حقوقا هضمت، ومشاكل تراكمت دون حل وينتظر لها حلا، أن يخرج من القالب الذي لا يتحمل أن يرى أن للكورد في العراق كيانه السياسي، والذي هو لا يزال جزءا من الكيان العراقي، يتطور يوما بعد آخر، ذلك الكيان الذي يصنع بالتدريج

ثقة بنفسه ليُكَوِّنَ نفسه بنفسه، بل يعلن للعالم بأن قوى تكمن فيه يمكن أن يستغلها كي لا يكون أقل شأنا من أي منطقة محيطة به سواء من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب!.

نظام لا يتحمل
أن يكون الكوردي عراقيا

هل يعقل أن تبدي بغداد انزعاجها بزيارة رئيس الوزراء الأردني إلى أربيل لفتح القنصلية الأردنية فيها، الأمر الذي حصل؟ أو كلما حاول إقليم كوردستان أن يفتح ممثلية له داخل السفارة العراقية في البلدان الأخرى، الأمر الذي حاول الجانب الكوردي أن يسن له في الدستور العراقي كاعتراف بخصوصيته التي أهملت بل حوربت سابقا، كلما واجه ذلك امتعاض عراقي من جزءه غير الكوردي! أو إذا أقيم في أربيل بسبب وضعها الأمني المناسب مقارنة ببغداد مؤتمر عراقي أو عربي اعترض عليه الكثير من العراقيين باعتبار المؤتمر عربي فكيف يقام في أربيل؟ كما حصل في مؤتمر البرلمانيين العرب، وكذلك عندما اقترح أن تكون أربيل موقعا بديلا لبغداد لإقامة مؤتمر القمة العربية جاء الرفض قويا من النظام في العراق، لو كنت مكان النظام في بغداد لحاولت أن يكون مكان إقامة كل مؤتمر عربي

(حظه أن يقام في العراق) هو كوردستان، هكذا سأجبر كعراقي أن يكون كوردستان جزءا من العراق!! أو هل يعقل إذا طلب إقليم كوردستان ضم مناطق يعتبرها الكورد جزءا من كوردستان إداريا إلى إقليم كوردستان تقوم بقية العراق ولا تجلس لتقول هي محاولات انفصال! يعني هل إذا ضمت منطقة إداريا من العراق ككركوك مثلا (وهي كانت كذلك وفق الوثائق التاريخية العثمانية) إلى إقليم كوردستان (وكأنه ليس عراقا)؟!

اجعل الكوردي عراقيا
كي يكون عراقيا

الجزء غير الكوردي من العراق لا يتعامل مع إقليم كوردستان كأنه جزء من العراق ويريد أن يكون كوردستان عراقا!! وإلا لماذا لا يستسيغ إذا كان وزير ما في بغداد كورديا، أو الرئيس العراقي كورديا، كما سمعنا كلاما من هذا النوع كثيرا، فعندما قدر للعراق أن يكون بعض وزراءه في هذه المرحلة التاريخية كوردا، كما رئيس الجمهورية كوردي، رفعت الأصوات العراقية التي تقول بان هذا اصطفاف عرقي مذهبي قومي وما إلى ذلك من اتهامات للعملية السياسية! وعندما يكون هناك نظام عراقي لا دور للكورد فيه عندها يعد ذلك النظام هو الوطني ومن يقف دونه هو خائن وعميل وانفصالي!

السياسة في العراق
احتلت حتى الرياضة

عندما سمحت الفيفا بإجراء مباريات كرة القدم للمنتخبات والفرق العراقية في أربيل دون بغداد للظروف الأمنية هناك، لم يعتبر الكثير من العراقيين أن الحصار الرياضي قد أزيل على العراق، بل لا يزال يعتبره أولئك انه قائم كون المباريات لا تجري في بغداد، وكأن أربيل ليس عراقا، بل عند مروري على موقع الكرة في المنتدى العراقي، لم يعجب الكثير من أولئك حضور عشرات الآلاف من العراقيين من غير كوردستان في ملعب فرنسو حريري في مباراة العراق والأردن، عندما خسر العراق واعتبروا أربيل الفأل السوء للعراق، فقرأت العجب عندما طالب هؤلاء بنقل المباريات العراقية من إقليم كوردستان إلى الإمارات أو الأردن وهو الأفضل للعراق؟!!

من الذي يصنع نزعة الانفصال؟!

لا يلام الكوردي وهو يرى هذا التعامل صباح مساء أن يكون له نزعة انفصالية، أو عندما يشعر في قرارة نفسه بأنه شيء آخر غير العراقي، أو عندما يجد في نفسه إحساسا ما بأنه مواطن بلا دولة ولا يتمتع بما يتمتع به بقية شعوب العالم، فهو يكاد لا يشعر بأن العراق دولته، لأن النظام في العراق لم يستطع عمليا إقناعه بأن العراق فعلا دولته، وبأنه مواطن عراقي من الدرجة الأولى!!

دروس من التاريخ

ربما لم يع النظام في العراق وربما حتى العراقيون أن إفشال النظام للثورة الكوردية التي اندلعت في عام ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين بعد تملص النظام العراقي من تنفيذ ما اتفق عليه في بيان الحادي عشر من آذار من عام ألف وتسعمائة وسبعين والذي منح بموجبه الحكم الذاتي لكوردستان العراق، أن إفشال تلك الثورة باتفاقية الجزائر عام ألف وتسعمائة وخمسة وسبعين، مقابل إعطاء مواقع إستراتيجية حدودية عراقية لإيران مقابل مشاركتها العراق لإفشال الثورة، هو الذي أدى بالضرورة إلى حرب ألثماني سنوات ضد إيران نفسها بدءا من عام ألف وتسعمائة وثمانين، وبعدها غزو الكويت عام ألف وتسعمائة وتسعين واحتلال العراق وتدميره بعد ذلك عام ألفين وثلاثة، وعمليات الإبادة الجماعية أو ما سميت بالأنفال والتي مورست ضد الكورد في ثمانينيات القرن الماضي، كل ذلك جعل الباب مفتوحا على مصراعيه وبعد ثلاثين سنة أن

يكون للكورد وضع خاص يميزه عن بقية العراق، بل يتمتع باستقرار أكثر من بقية العراق وبوضع امني واقتصادي أفضل، وذلك هو الذي أدى ليتحول المطلب الكوردي من الحكم الذاتي في بيان الحادي عشر من آذار عام سبعين من الحكم الذاتي الشكلي إلى الفيدرالية الفعلية المثبتة في الدستور العراقي الدائم والذي صوت عليه أكثرية العراقيين عام ألفين وخمسة.

تحذير

بعد كل هذا يجب أن يحذر النظام السياسي العراقي وكذلك العراقيون غير الكورد، وكل من لا يريد أن تكون هناك دولة كوردية من تركيا وايران وبقية العالم العربي، إلى خطر أن يتطور المطلب الكوردي من الفيدرالية الحالية إلى الدولة واندفاع الكورد للانفصال من العراق وسط وضع سياسي مهيأ لتغيير في الخريطة الجغرافية بدأت من السودان ووصلت للربيع العربي الذي يشتد يوما بعد آخر، إذا ما ظل التعامل مع الملف الكوردي في العراق على سجيته الكلاسيكية المعروفة منذ أكثر من قرن من الزمان.

الاقتصاد يسبق الدولة

كان تقرير من تقاريرنا في جنوب السودان عن اقتصاد الدولة القادمة، اتخذنا (أمين عكاشة) نموذجا، وهو من الشمال تربى وترعرع في الجنوب بعد أن انتقل والده إلى هناك قبل مائة عام للتجارة، عكاشة يعيش عقده السابع، وهو يملك راس مال كبيرا في الجنوب، يملك شركة طيران وعمارات وفنادق، خمسة عشر مليون دولار لعكاشة وضعت في استثمارات في جنوب السودان، وهذا المبلغ يعتبر كبيرا جدا إذا اعتبرنا انه وضع في مشاريع لمنطقة لم تشهد بعد البناء في الدور والشوارع ولا يزال الناس هناك يعيشون في الأكواخ، عكاشة إنسان شمالي لكن روحه أصبحت جنوبية، وآماله وطموحاته كلها جنوبية، لم يكن طالبا بانفصال الجنوب لكن كان يحترم إرادة الجنوبيين، ويقول وما الضير إذا اختار الجنوبيون الانفصال؟! كان يقول: "أشجع المستثمرين العرب من خلالكم أن يأتوا إلى جنوب السودان، قبل أن يصلها غيرهم" لم يكن يمنعه من ذلك أن الجنوب على وشك

الانفصال، لم يكن يمنعه من ذلك وهو الشمالي الأصل العربي المسلم على خلاف غالبية مواطني الجنوب، وكان يستعد لمشاريع أخرى عملاقة بعد انفصال الجنوب، وعند لقائنا به كان يرأس اجتماعا لرجال أعمال جنوب السودان ليشكل منهم وفدا ويسافرون إلى الخرطوم ليدعونهم إلى الاستثمار في الجنوب مع حوافز لهم من حكومة الجنوب، كان عكاشة محبوبا جدا من مواطني الجنوب وكانت قيادات الحركة الشعبية تدعمه وتسهل له كل ما يريد، وهذا الذي جعله يتمسك بالجنوب، ويدافع عن تجربتها أكثر من مواطني الجنوب أنفسهم، ويكون موقفه ايجابيا ويشجع غيره ليكون موقفهم مثل موقفه، من المهم لأي تجربة كجنوب السودان تريد أن تتجه نحو الاستقلال أن يكون لها رجال من طراز أمين عكاشة، حتى ولو انعدم مثل هؤلاء الرجال فعليهم البحث عنهم وإيجادهم بل صنعهم.

هل لكوردستان عكاشة؟

من المهم جدا أن يكون لكوردستان أمثال عكاشة السوداني، أن يكون لنا عكاشة العراقي، والتركي والإيراني، والعربي، من المهم أن نبحث عن مثل هؤلاء نجلبهم بطريقة ما إلى كوردستان يستفيدون من خيرات كوردستان، ويرون أنهم بحاجة إلى كوردستان ليشاركوا الكورد في طموحاتهم وأحلامهم ومشاريعهم، من المهم أن نبحث عن غير الكوردي الذي له المصلحة في كوردستان، وتتحقق مصالحه بتحقيق المطالب الكوردية سواء بالفيدرالية أو بالدولة، اليوم أو مستقبلا، يجدون راحتهم في كوردستان أكثر من غيرها من المناطق وهذا يتطلب حصولهم على امتيازات أكثر مما يحصلون عليها في مناطق أخرى، هذا الذي سيشركهم مع الكورد في مطالبهم وربما سيكونون أكثر من الكورد كوردا في دعم كوردستان، ويجب أن يكون هؤلاء مكرمين، محميين على حياتهم ومصالحهم وأموالهم، وكوردستان أكثر تأهيلا من جنوب السودان في إيجاد هؤلاء، أو

جذب هؤلاء، أو حث هؤلاء للمجيء إلى كوردستان للاستثمار فيها، فمجالات الاستثمار كبيرة وكثيرة في كوردستان العراق إذا ما قارناها بجنوب السودان، ويجب أن يحصل هؤلاء على دعم من القيادات الكوردية، شريطة عدم فرض شراكة المسؤولين أنفسهم مع هؤلاء في مشاريعهم، الأمر الذي يحصل في كوردستان! لأن الشراكة في المال يولد الكراهية والضغينة ومشاكل قد تأتي بنتائج عكسية.

تجربة كوردستان في الاقتصاد

تكاد المصالح الاقتصادية اليوم تفوق المشاعر القومية والوطنية، فإذا كنا في كوردستان سابقا ولا نزال ضحية الأعداء الذين كانوا يحاربوننا من منطلق مشاعر وطنية وقومية مضادة لنا، كونهم يرون كوردستان بأنها ستقسم بلادهم، وتمزق وطنهم، ولذلك فلابد أن يقفوا بالضد و أن يحاربوا كل مشروع دولة بالنسبة للكورد، إلا أننا لو تمكنا من إيجاد أمثال عكاشة من رجال أعمال كبار، يتم اختيارهم بعناية فائقة، بحيث يكون لهم تأثير على مجتمعاتهم، أو على شرائح واسعة من مجتمعاتهم، فمن المهم إطماعهم في خيرات كوردستان ليأتوا ويستفيدوا فننزع عنهم مشاعرهم القومية والوطنية المكنونة في أنفسهم ضدنا، بل نحارب تلك المشاعر بحرب هادئة من غير سلاح وقتال، نهزم كل تلك المشاعر بصنع طموح اقتصادي ومصالح اقتصادية لهم في كوردستان، ليجدوا أنفسهم بعد فترة جنودا مدافعين عن تجربة كوردستان، سيكون ذلك عندما يشعر أولئك

فعلا بأنهم مواطنون هنا، بل لهم امتيازات أكثر من امتيازات المواطنين، هذه عملية مهمة جدا وممكنة، لكنها صعبة في الوقت نفسه، يحتاج إلى تخطيط دقيق وتعامل حساس وقد نفشل في بعضهم لكن المهم أن ننجح في آخرين، وسوف لا يضر بنا من نخسر فيه لان الأمر بيدنا يمكن الاستغناء عن أي فاشل من هؤلاء في أية لحظة، لكن بالتأكيد إذا تمكن أي من رجال الأعمال في إيجاد موطئ قدم لرأسماله، واقتنع بأن رفاهية كوردستان وتحقيق المطالب الكوردية هي الوحيدة التي تضمن له رأسماله فبالتأكيد سيدافع عن مطالبنا قبلنا وبأقوى منا .

خطوات ناجحة، ولكن..

كوردستان خطت في هذا المجال خطوات ناجحة، لكنها بدائية، وتحتاج للمراقبة والمتابعة، لأنه ليس العبرة بالبدء بل العبرة في النتيجة، لأن هذه العملية سلاح ذو حدين إذا لم نحسن استخدامه قد ينعكس ضدنا، فيجب التنبه إلى ضبط الأهداف وعدم الخروج من المسار، فلا يجعلون من أنفسهم بأننا نحن الذين نحتاج إليهم ولا يمكن الاستغناء عنهم فنكون نحن رهن إرادتهم! وأسرى مخططاتهم! وبخاصة إذا كان تعاملنا مع دول لا مع شركات ورجال أعمال، دول كتركيا، وإيران وهذا ما نحذر منه وهو الذي يحصل حاليا! وهو أمر خطير إذا لم ننتبه له، وعكس ما نحن نشير إليه في موضوعنا هذا، فهذه الدول قد تدبر لنا شرا من وراء الغزو الاقتصادي لكوردستان، وربما هم يجعلوننا أسرى ذلك الاقتصاد يحركونه وفق مصالحهم لا مصالحنا، لأن الخطر يكمن في أنهم هم الأقوى ونحن الأضعف في تلك الحرب الخفية الباردة، حرب اللعب في المصالح

الاقتصادية من أجل أهداف سياسية، من المهم أن ترى تلك الدول بأننا (كوردستان) سوق مهم بالنسبة لهم، لكن من موقع أننا نحن نريد ونحن نقرر لا هم، وبحيث نشعرهم بأن بإمكاننا الاستغناء عنهم في الوقت الذي نريد، مثلا نحرجهم ونقلقهم في أي قرار جمعي كوردي في مقاطعة بضاعة دولة ما تقف ضد تحقيق مطالبنا، ونصبر على ذلك مادام الهدف هو الضغط على تلك الدول باتجاه ما نحن نريده.

مؤسسة مراقبة، وجهاز مسيطر..

هذا يتطلب صنع مؤسسة من نخبة اقتصادية خبيرة مخلصة، تكون لها صلاحية المراقبة الاقتصادية المطلقة على سير العمل الاقتصادي للشركات ورجال الأعمال الأجانب في كوردستان، يتم اختيار أعضائها بعناية فائقة. مهمة هذه المؤسسة مراقبة نتيجة هذه الحرب الباردة الاقتصادية التي ستعلنها كوردستان على من يحمل ضدها مشاعر قومية معادية، وتقف ضد تحقيق المطالب الكوردية سواء من رجال أعمال، أو شركات، أو حتى دول كما في حالتي تركيا وإيران، ويمكن تحويل المصالح الاقتصادية لهؤلاء في كوردستان لصالح كوردستان وليس ضدها، إذا تيقنت دول، مثل تركيا وإيران، أن مصالحها الاقتصادية تكمن في كوردستان فمن السهولة أن تغير موقفها المعادي للتجربة إلى موقف داعم لها وربما مطور لها مستقبلاً، وقد يسأل سائل بأنني ذهبت بعيدا في هذا، وأن ذلك من نسج الخيال فأقول من يصبوا للدولة عليه أن يذهب بعيدا ويحول الخيال إلى واقع.

الخاتمة

بين جنوب السودان، وكوردستان
غياب مشروع الدولة

نختم سلسلة مواضيعنا عن رحلتي إلى جنوب السودان، وانطباعاتي عن تلك التجربة التي كانت على وشك أن تصبح دولة، وأصبحت كذلك فيما بعد، ومقارنتها بتجربة كوردستان، وهل يمكن الخروج بدروس مستوحاة من جنوب السودان لتجربة كوردستان؟ دخلنا السلسلة عارضين ما رأينا من تجربة هناك في الجنوب، وتطرقنا لبعض المقارنة بينه وبين كوردستان، أشرنا في البداية إلى الفرق الشاسع بين كوردستان العراق وجنوب السودان من حيث التطور والبنى التحتية ووجود اللغة الخاصة كتابة وتكلما، وكذلك الجغرافيا الخاصة الأمر الذي يتجلى بوضوح في تجربة كوردستان دون جنوب السودان، وكنا نريد بذلك أن نقول بأن كوردستان واقعا كانت اقرب للدولة من جنوب السودان، لكن جنوب السودان أصبح دولة دون

كوردستان، دون أن ننسى المحيط الحديدي بكوردستان الذي يمنع أن تكون كوردستان دولة، والمحيط الحريري بجنوب السودان الذي ساعد أن يكون جنوب السودان دولة، إضافة إلى العامل الدولي المساعد لجنوب السودان دون كوردستان، هنا وفي هذه الخاتمة أريد أن أشير إلى أهم نقطة في الاختلاف الموجود بين جنوب السودان وكوردستان، وهو أن جنوب السودان كان يحمل مشروع الدولة وكوردستان طوال نضاله في القرن العشرين لم يكن بين يدي سياسييه ولا حركاته السياسية وثوراته مشروع دولة!

تكرار دون تجديد

ما يعيب على الحركات السياسية الكوردية هو التصور المسبق باستحالة تكوين الدولة الكوردية، نتيجة للظروف المعروفة والمحيطة بكوردستان، ولمعرفة الموقف الدولي من هذه الدولة، هذا ما يجعل أي حركة سياسية كوردية أو حزب كوردي بل حتى ثورة كوردية أن تلغي من برنامجها العملي السعي نحو الدولة بل حتى مجرد الطلب بالدولة، ولهذا جاءت كل الأحزاب والحركات والثورات الكوردية دون أن تحمل مشروع الدولة الكوردية، وكلما يأتي حزب جديد أو حركة تكرر تجربة سابقاتها، أي أن كل حزب سياسي كوردي يكرر تجربة من سبقه من الأحزاب دون أن يفكر بأن يحمل جديدا سواء في الفكر والمشروع والهدف، ولهذا ليس هناك مبرر لأحزاب وحركات كوردية جديدة إذا لم تكن لها رؤية جديدة ومشروع جديد وإستراتيجية جديدة، لأن التجربة الكوردية حاليا لا تحتاج إلى التكرار بقدر حاجتها إلى التجديد، ولا أظن أن يكون هناك

جديد في أي مشروع سياسي كوردي قادم إذا لم يحمل بين يديه مشروعا واضحا للدولة، وطلبا واضحا للدولة، وسعيا واضحا باتجاه ذلك، لا أن تستحي الحركات بذكر أنها تسعى للدولة!! أو إذا سئل قيادي كوردي ما من قبل صحفي بأنكم تسعون للدولة، نفى ذلك نفيا قاطعا وافتخر بنضاله الذي ليس فيه مشروع دولة، وما هو موجود مجرد أمنية أو حلم، من المعيب سياسيا أن يجعل الكوردي الدولة مجرد أمنية أو مجرد حلم، بل من المعيب تماما أن تتجنب الحركات السياسية الكوردية أيا كانت هذه الحركة الحديث عن السعي للدولة، وكأن السعي للدولة جرم سياسي يجب تجنبه.

الدولة تصنع ولا تمنح

كما قيل في الحرية بأنها تؤخذ ولا تعطى، فكذلك الدولة تصنع ولا تمنح!! كيف سيكون لكوردستان دولة إذا كان سياسيوا الكورد قبل غيرهم يقولون بأنهم لا يسعون لها، وهم وحدويون لا انفصاليون، ويطرحون مشاريعهم وفق طموح غيرهم (الأعداء) لا وفق طموحهم كحاملين للواء نضال شعبهم، ويجعلون من الدولة مجرد أمنية أو حلم أو حق لم يحن وقته؟! ولا يكون الحديث عن الدولة الكوردية أو حق تقرير المصير إلا إذا كان ذلك استخداما لعصا التهديد للحصول على بعض المكاسب، وإذا تم الحصول عليها (المكاسب دون الدولة) سرعان ما تم التناسي عن الدولة وحتى عن حق تقرير المصير، وليس هذا هو الطريق إلى الدولة الكوردية وكما قيل عربيا (ما هكذا تورد الإبل يا سعد)!

تجارب طالبت فكانت لها

عدة تجارب في العقدين الأخيرين كانت تحمل مشروع دولة، وكلها كانت تواجه في بداياتها عوائق كثيرة، إلا أن تلك المشاريع تحققت في الأخير، جنوب السودان كان آخر تلك التجارب، وقبلها كانت تجربة البوسنة والهرسك، وتيمور الشرقية، وربما تجارب أخرى أيضا ستسبق تجربة كوردستان في تحقيق الدولة كفلسطين مثلا، هذا يتطلب من التجربة الكوردية أن تراجع برامجها وتعيد صياغة أوراقها السياسية لتجعل لها مشروع دولة وتضع إستراتيجية واضحة تسير عليها للوصول إلى ذلك، وتوصل مشروعها للأوساط الدولية لتكون هذه الأوساط على علم بان أصحاب التجربة الكوردية يحملون مشروعا للدولة، وسيواجه بالتأكيد ذلك المشروع عوائق كثيرة، مثل بقية مشاريع الدولة، لكن في المقابل سنرى من يدعم الكورد في مشروعه وسعيه لتحقيق ذلك، وبمرور الزمن سنرى من يدعمون المشروع الكوردي للدولة، وقد نرى تغييرا في مواقف بعض المتشددين

ضد الدولة الكوردية والذين سبق وان كانوا متشددين ضد أي مطلب كوردي لكن حصل تغيير في مواقفهم منه كما في العراق وتركيا، ولهذا من المؤكد أن تغييرات ستطرأ في المواقف المتشددة بشرط أن يكون هناك فعلا مشروع كوردي للدولة، وكان هناك سعي كوردي حقيقي لتحقيق ذلك، وإذا كان هناك إصرار كوردي على المستوى الإقليمي والدولي.

مقومات المشروع الكوردي للدولة

لم يكن في أية فترة خلال المائة سنة الأخيرة، التجربة الكوردية قريبة للدولة مثلما هي الآن في كوردستان العراق، فالتجربة تمتلك مقومات كبيرة للدولة، ولهذا أي مشروع للدولة ستكون صياغته سهلة وتحقيقه أيضا سهلا مقارنة بما مضى من التاريخ النضالي الكوردي، ومن بين أهم هذه المقومات هي:

- شارع كوردي متلهف للحديث عن الدولة: وصياغة مشروع لذلك، والسعي نحو تحقيقه، وما تملكه التجربة الكوردية ربما لا تملكها أي تجربة أخرى في العالم في حالة الاشتياق والهيجان للدولة، والاستعداد للتضحية في سبيل ذلك، وهذا الشارع سيساند أي حركة سياسية أو حزب أو توجه قيادي كوردي نحو الدولة.

- برلمان، وحكومة ورئاسة للإقليم، وأحزاب سياسية كوردية: من السهولة بمكان أن يوجه البرلمان لتهيئة الأجواء في الإقليم لمشروع الدولة وذلك بالبدء بصياغة لهذا المشروع

ومناقشته وعرضه على الأوساط الشعبية والجماهيرية للحديث عنه، ولا أظن أن أي حزب سياسي كوردي أو حركة سياسية كوردية ستجرأ على تجنب نفسه الخوض في مشروع الدولة فيما إذا كانت هناك خطوات جادة نحو ذلك، فمن السهولة تهيئة الأجواء السياسية وكذلك الشعبية في كوردستان العراق لمشروع الدولة.

- بنية تحتية مؤهلة للدولة: في نصف العقد الأخير تمكنت حكومة كوردستان من صنع بنية تحتية لا بأس بها، ويمكن التطوير بها في المستقبل القريب لإعلان دولة عليها، وما يمتلكه إقليم كوردستان الآن من بنية تحتية لم يكن تمتلكه أي تجربة سبقت التجربة الكوردية في الإعلان عن دولتها، مؤخرا كجنوب السودان مثلا.

- تغييرات سياسية شاملة في المنطقة: تعيش المنطقة تغييرات يسميها البعض بالربيع العربي في المنطقة، هذه التغييرات ستسبق تغييرات كبيرة وكثيرة في المستقبل ستؤدي بالضرورة إلى التغيير في العقلية والموقف من التجربة الكوردية من قبل العرب وغيرهم فيما إذا أحسنت القيادات الكوردية التعامل مع ما يحدث من تغييرات، وإذا تمكنت من أن تستمد من الربيع العربي ربيعا كورديا.

في ختام كلماتي هذه اشكر جريدة باس العربية التي أتاحت لي الفرصة في الخوض في هذا الموضوع الهام والحساس والكبير، وأتمنى أن أكون قد وفقت في تسليط الضوء من خلال عرضي لتجربة جنوب السودان على تجربة كوردستان، والسلام.

الفهرس

الاهداء 5
تقديم 7
كلمة لا بد منها 11
ضمن فريق التغطية 13
استفسار قبل الاستفتاء 17
بداية القصة 20
الإعداد للمهمة 22
معالم السيادة بين جنوب السودان وكوردستان 24
تغيير المناهج الدراسية 27
الطرق في جنوب السودان 29
التهيؤ للتغطية 31
قصة الحرب 38
بين المطارات...أفكار وآراء 44
بين المطارات، أربيل أولاً 46
مطار أتاتورك 48
مطار جوبا 49
مطار الخرطوم 50
كوردستان أكثر تهيئة للدولة 52
من الجو 53

برودة السودان 54
البداية هنا في السودان 59
التجربة الطفلة 61
التعليم والمدارس، استقبال الرئيس 67
الطبيعة أجمل..... 69
مجتمع أمني 71
التعليم يحاول تجاوز العوائق 73
السياسة تعيق التعليم..... 75
نشيد على وشك الزوال 76
حل مشاكل التعليم قبل تغيير المناهج واللغة 77
السياسيون لهم رأي آخر..... 79
بين تجربتين 80
بعيداً عن التشبث بالقشرة 83
تحقيق الأمنية الحلم..... 84
معالم السيادة..... 86
السلام الوطني 88
للعلم القصة نفسها 90
علم كوردستان من جنوب السودان 91
الفرق بينهما 93
زوال صدام أضر بالكورد 94
الطرق في جنوب السودان..... 96

الزمن بطيء جداً 97
أقرب للجوار 99
آلاف الكيلومترات ومليارات من الدولارات..... 100
التعداد لما لم يتحقق 102
طريق جوبا – نوملي..... 104
كنز يفتح أبوابه..... 106
شعارات لا تغني من جوع 108
فقر وجهل وحرمان 112
الدولة الكوردية 114
قصف بين دعم وقبول وصمت 117
الأرض تتكلم كوردي 119
من سيبادر؟..... 121
لا خيار غير الانفصال 123
التطلع لغير خيار الانفصال 125
التطلع الشعبي لا يقاوم 127
ما بعد آذار 1991 واتفاقية نيفاشا 2005 129
من أكثر خبرة 131
توريت مشعل الحرب 132
الطريق إلى توريت 134
ليل الطريق إلى توريت 136
عشاء في ليل الطريق 138

منتصف الطريق 140
كيف سنقضي الليلة؟ 141
ما لم يكن في الحسبان! 142
أمن لا بد منه 143
لم تشفع لي كورديتي 145
كذلك كان كوردستان 146
وعي أمني مشترك 148
وأخيراً توريت 150
الأمن ثم الأمن 152
محارب قديم في ذكريات قديمة 153
ضد الوحدة 155
لا قلق من الانفصال 156
ذكريات الماضي تشحن الحاضر 157
ما بين نظامي حكم 158
السودان أفقد ثقة الجنوبيين به مثلما فعل العراق بشماله 160
تعامل لم يحل المشكلة 162
لماذا لا يشعر الكوردي بعراقيته؟ 164
نظام لا يتحمل أن يكون الكوردي عراقياً 166
اجعل الكوردي عراقياً كي يكون عراقياً 168
السياسة في العراق احتلت حتى الرياضة 169
من الذي يصنع نزعة الانفصال 170

دروس من التاريخ 171
تحذير 173
الاقتصاد يسبق الدولة 174
هل لكوردستان عكاشة؟ 176
تجربة كوردستان في الاقتصاد 178
خطوات ناجحة، ولكن.. 180
مؤسسة مراقبة، وجهاز مسيطر..... 182
الخاتمة: بين جنوب السودان وكوردستان غياب مشروع الدولة . 183
تكرار دون تجديد 185
الدولة تصنع ولا تمنح 187
تجارب طالبت فكانت لها 188
مقومات المشروع الكوردي للدولة 190